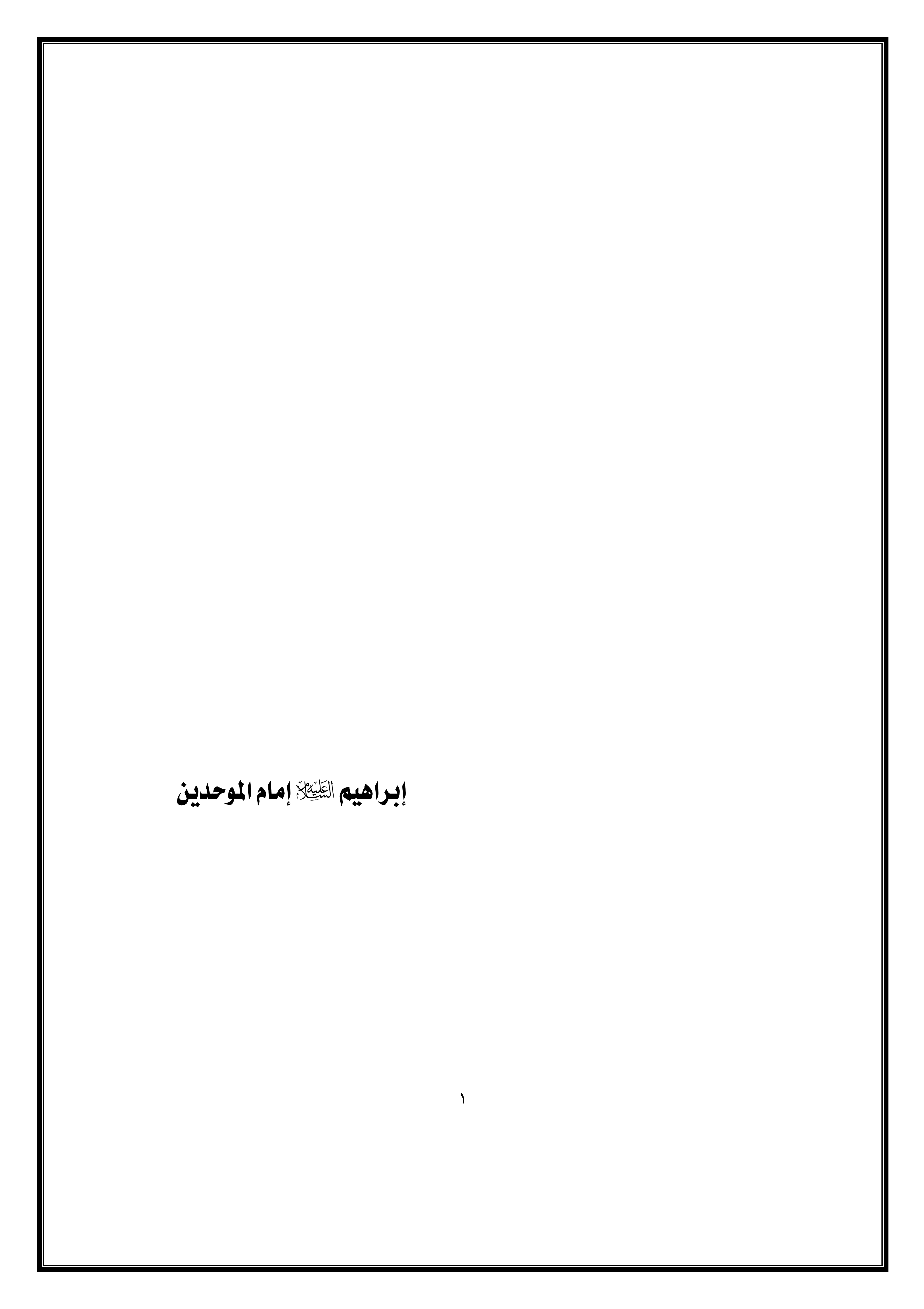


إبراهيم عليه السلام إمام الموحدين

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/١١/٣٩٧٩)

٢٢٨,٢٢٦
أبو شرار، محمود موسى
إبراهيم عليه السلام إمام الموحدين/محمود موسى أبو شرار._
عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
(١٠٤) ص
ر.أ: (٢٠١٣/١١/٣٩٧٩).
الواصفات: /قصص القرآن//القرآن الكريم

❖ **يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.**

ردمك ٥ – ١٩٣ – ٧٧ – ٩٩٥٧ -٩٧٨ ISBN



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

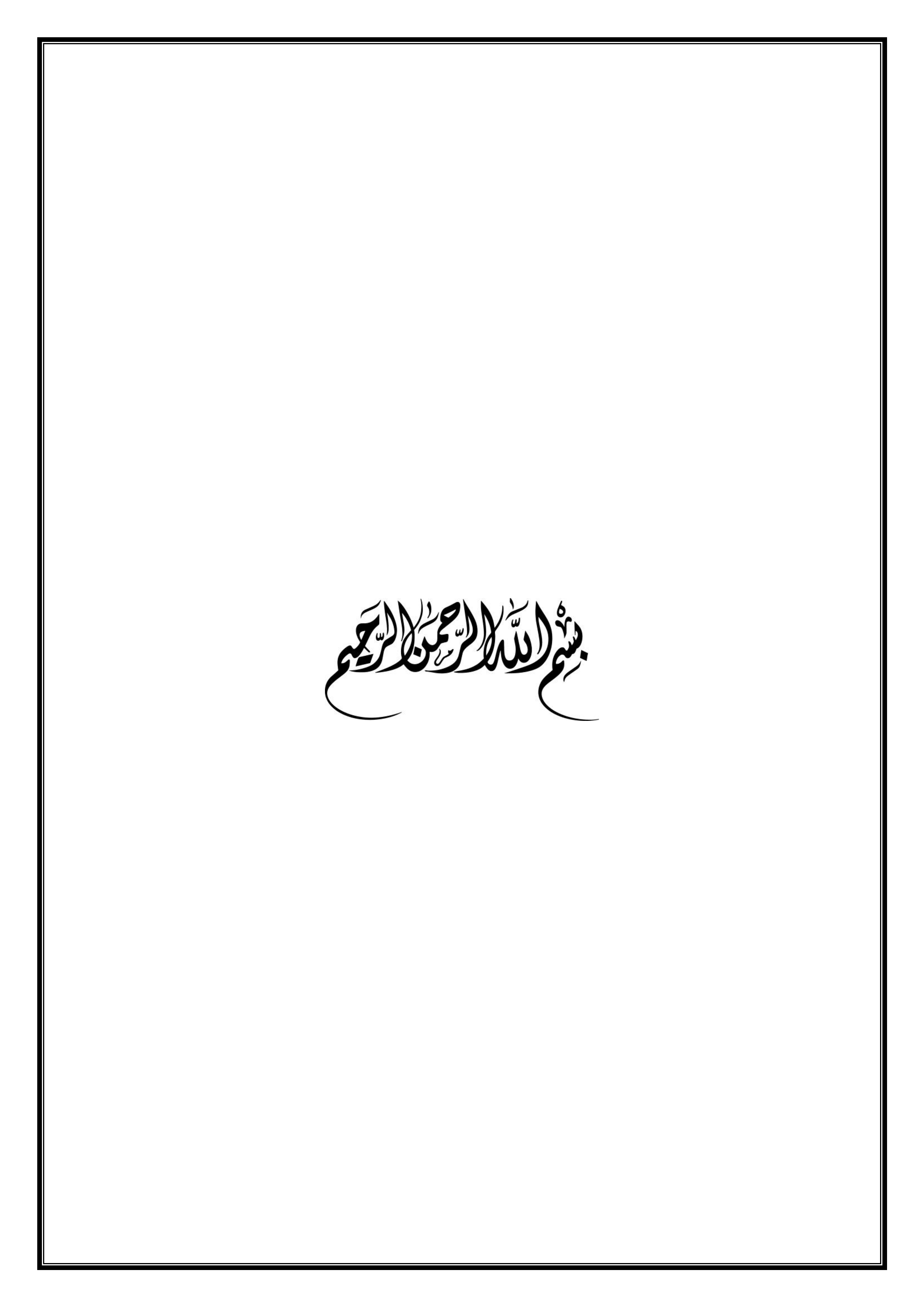
إبراهيم عليه السلام إمام الموحدين

تأليف

محمود موسى أبو شرار



دار المأمون للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

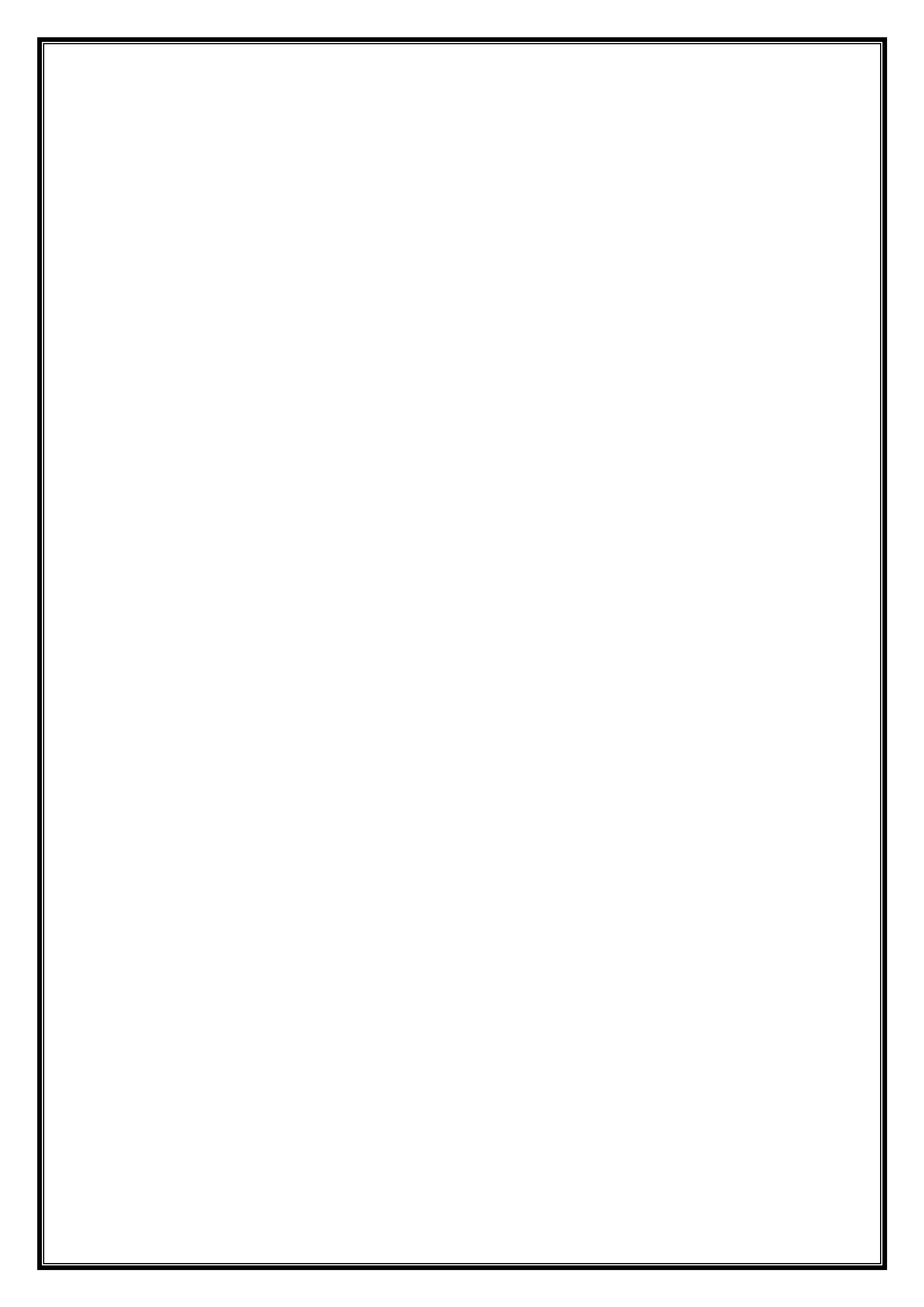
آيات من القرآن الكريم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧ - ٦٨].

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ [النساء: ١٢٥].



مقدمــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أكرم أمة الإسلام بالقرآن الكريم الذي حفظه حتى وصلنا سليما": واضح التشريع، بين الأحكام، محكم الآيات، هو العروة الوثقى، والرابطة الفضلى، يعز من آمن به وعمل، ويذل من هجره وقلاه، رفع به ذكر شعوب، وأنار به قلوب أناس، أسعد به الطائع، وأشقى به العاصي فيه راحة البال، ووضح الرؤيا، واستنارة العقل، وسكينة النفس، به يقوم المعوج، ويعدل به المائل، ينير بهديه طريق المؤمنين الصادقين.

فيه القصص الحق، والعظات البينات، والعلم النافع، والقول الفصل؛ في تاريخ الأنبياء والرسل؛ فيه الصورة الحقيقية لحياة إمام الموحدين: إبراهيم الخليـــل - عليه السلام- حامل مشعل الأيمان، ورافع راية التوحيد، حيث كان أمة بمفرده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم القائل: «إن لكل نبيّ ولاية من النبيين وإن ولي فيهم وخليل ربي عزّ وجلّ إبراهيم عليه السلام» الترمذي.

قال الله سبحانه وتعالى؛ في رده على من يعتز بنسبه لإبراهيم – عليه السلام-:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧] .

لا ينسب الأصل للفرع، والقديم للجديد؛ فإبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً حيث ظهرت الديانة اليهودية بعده بأجيال، ولم يكن نصرانياً لأن هذه الديانة ظهرت بعده بقرون، ففي هذه الآية المباركة الرد المفعم، والحجة الدامغة على افتراء الكفار من الكتابيين.

وأن إبــــراهيم - عليه السلام - كــــان حنيفــــاً مســــلماً ﴿...وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥] تعريفاً بمن يعتز ويفتخر بالنسب إليه وهو مشرك كما قال سبحانه وتعالى في تكريم وتشريف أمة الإسلام: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

هذا هو الوسام الوضاء على صدر أمة الإسلام من خالق الهداية والنور، خالق الكون والإنسان والحياة، فلتفخر بوسام العزة، تتقلده شعوب يرفع في ربوعها ذكر الله الواحد الأحد الفرد الصمد فالشكر لله الذي أعز أمة الإسلام بقوله: ﴿...وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] دين إبراهيم - عليه السلام- هو دين الفطرة؛ ذكرت سيرته في كتاب الله لتثبيت الإيمان في قلوب المؤمنين في جميع الظروف سواء كان أمة فرداً يدعو أو دولة تحمل الدعوة وتحميها فإبراهيم - عليه السلام- هو مثال الداعية الفرد وأما مثال الداعية بدولة تسندها أمة هو رسول الله محمد ﷺ.

المؤلف

١

- إبراهيم - عليه السلام-

يستعمل الفكر المستنير لتوحيد الربوبية

سبقت هذه الآيات بآية مباركة تصف الحيرة التي انتابت قريش في الفترة المكية من نزول القرآن الكريم، بين عبادة الأصنام التي ألفتها العرب واستعذبتها؛ تلك التي تسربت إلى جزيرتهم في ذلك الوقت من حياة الجاهلية؛ تلك الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، وبين دعوة التوحيد التي نادى بها رسول الله محمد ﷺ وصحابته المؤمنين المخلصون المتقون، منارات العلم، ومشاعل النور، الذين ينيرون سبيل المهتدين؛ سلاحهم الوحيد في تلك الفترة من حياة الدعوة الإسلامية الحجج والبراهين الواضحة البينة، وهم يسيرون في طريق الصالحين المحسنين المستنيرين بنور اليقين والإيمان.

فالضالون المضلون ومن تبعهم من الكفار والمنافقين والفساق والفجار: يدعون الناس للسير في طريقهم الذي زين لهم الشيطان السير فيه، وحسنه في نظرهم، فمالت إليه نفوسهم المريضة؛ فخدعوا وضلوا وأضلوا.

وبالمقابل من هدى الله من الأنبياء والصالحين يدعونهم للسير معهم في طريق الفلاح، الصراط المستقيم، صراط المتقين الذين أنعم الله عليهم بالهداية، ذلك الطريق الموصل لأبواب السعادة الخالدة في الجنان. والقرشي حيران يتخبط بين الطريقين؛ يستنير قلبه حيناً، فيلتفت نحو طريق المؤمنين الصالحين، ثم يصرف بصره بإغراء وتزيين حزب الشيطان له ليسير معهم في تلك المتاهات والدياجير، طرق الضالين الملعونين، طرق المغضوب عليهم.

قال سبحانه وتعالى يصف هذه الفئة وضلالها: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وتصف الآية التالية حال قريش، وبكل دقة ووضوح، وكيف يجيبهم رسول الله محمد ﷺ، وكيف يضرب لهم الأمثال، لعلهم يهتدون قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ

﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

فقريش في أرض الحرم، والعرب من حولها، في تردد وحيرة وغواية وضلال، يقودهم شيطان مارد، تكبر من دون خلق الله، وأقسم أن يمتهن الضلال، فمن تبعه غوى أقول عبدة الأصنام هؤلاء المقلدون للآباء والأجداد بدون بصيرة، العاكفون على عبادة الأوثان. تلك التي دنسوا بها بيت الله الحرام؛ وانحرفوا عن الدين الحنيف بسببها.

وكان خوف قريش من الدين الإسلامي الذي يحرم عبادة الأصنام أن تنزل مكانتهم، ويختل أمنهم وتجارتهم وزعامتهم لبلاد العرب، فهم سدنة البيت الحرام، وخدمة الأصنام، وأهل مكة المكرمة، عاصمة العرب الدينية.

وكان تمسكهم بتلك الأصنام، وعبادتها، وتكريمها، ظناً منهم أنها ترزقهم، وتحميهم، فكانت مقاومتهم للدين الإسلامي عنيفة، وخاصة الملأ منهم، وذلك دفاعاً عن مصلحتهم المادية، فوقفوا ذلك الموقف المعروف أمام دعوة رسول الله محمد ﷺ، لعمه أبي طالب حين أشرف على الموت، ورسول الله يدعوه للإيمان أو نطق الشهادة طمعاً في إسلامه وحباً له، خاصة لمواقفه الدافعية عن رسول الله، وثباته المعروف في هذا الأمر والملأ من كفار قريش تقول له: أتترك دين عبد المطلب دين الآباء، فمات على دين الآباء.

فمن هنا ترددت قصة إبراهيم - عليه السلام- في مواقف كثيرة، في كتاب الله، لتكون عظة ودفاعاً قوياً لدخول قريش في هذا الدين المكرم لذكرى إبراهيم جد قريش عليه السلام والذي تعتز بالنسب إليه ذلك الجد المحسن الصالح الحكيم الكريم، باني مفخرة العرب، بيت الله الحرام، مهوى قلوبهم، وبؤرة تجمعهم للحج والعمرة – وذلك بإذن الله -.

فكان في هذا القصص البرهان الساطع، والحجة الدامغة، على صحة دين الإسلام الذي هو امتداد لدين إبراهيم الحنيف، هذا الدين الذي بدأ ينير للناس طريق الفلاح والنجاح والخير فمن اهتدى وسار في طريق التقوى، مع المؤمنين الذين هدى الله، أفلح ونجا، ونال رضا الله، ومن أغراه الشيطان والتكبر والتقليد الأعمى هلك وأهلك، وضل وأضل، لسيره طريق التردد والحيرة وسطحية التفكير الذي يؤدي بصاحبه إلى الجهل والغباء ثم إلى سوء المنقلب.

وذكر يا محمد قريشاً بما قاله نبي الله إبراهيم، عليه السلام، لأبيه آزر حين دعاه للإسلام وهجر عبادة الأصنام أخبر سبحانه وتعالى، بهذا القول حيث قال:

﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٧٤].

وقوله تعالى ﴿وَقَوۡمَكَ﴾ ولم يقل "وقومنا" فيها من الإشارة والتنبيه باستقلالية رأيه، عليه السلام، عن قومه لضلالهم، وتمسكهم بعبادة تلك الأصنام الحقيرة.

وأما قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وقبل أن يظهر حججه وأدلته على صحة دعواه، وفساد معتقدهم كأنه يريد تنبيه السامع لأهمية كلامه، وتحديه لأعظم وأجل ما يملكه أبواه وقومه، من انحراف عن الفطرة، وانحطاط الفكر بعبادتهم تلك الأوثان التي صنعتها أيديهم.

وقوله - عليه السلام- لأبيه ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ وهو يعلم مقدار إجلال أبيه وحرصه الشديد على عبادة تلك الأصنام، وتقديرها، بل والتضحية من أجلها إذا لزم الأمر أقول هو استفهام استنكاري، وفيه من هز المشاعر ما فيه: لعل تلك الأغشية والستائر السوداء المانعة من وصول نور الحقيقة إلى قلبه الذي ملأه الرين، تتمزق تلك الستائر، ويتهيأ لسماع دعوة الحق؛ فيستنير ذلك القلب المتحجر، ويستقيم سلوك هذا الأب فيهتدي، فينجو.

الإيمان عن طريق الفكر العميق المستنير والبصيرة النافذة هو الذي يولد اليقين، ويثبت العقيدة الصحيحة، كالجذور في الشجرة حيث ينبت من تلك الأرومة الثابتة الفكر الكلي، ومنه يمتد الفكر الجزئي، فيكتمل بناء الشجرة تلك التي تستطيع الثبات أمام أقوى وأشد العواصف، والآراء الفاسدة، والشبهات الملتوية التي تعتري العقائد التقليدية عادة، فتمنع وصول الماء والخير إلى جذور تلك الشجرة، فتهرم وتضعف، حتى تجد دعاة ومصلحين أشداء فيزيلوا التراب المتراكم ليصل الخير تلك الجذور قبل فوات الأوان.

ويستأنس من كلمة "نري إبراهيم" أن الله قد هداه للسير في الطريق السليم الصحيح المستقيم وذلك بالتفكر في مخلوقات الله المحيطة المحسوسة الملموسة الموحية بوحدة الكون، وتوحيد الربوبية والألوهية، في شخص خالق الكون الواحد الأحد الفرد الصمد.

وهو ما توحي به قصة إيمان إبراهيم، عليه السلام، الفطري الذي تطمئن

له النفس ويقوي على الرد على الانحرافات ومتاهات النفس الأمارة بالسوء، والحيرة والتردد والتخبط، ثم التصور الخاطئ الموصل للضلال.

قال سبحانه وتعالى مبيناً طريقة اليقين في العقيدة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ هو ما فيها من حسن النظم، ودقة الصنعة، وما بينها من روابط وعلاقات ونواميس، توحي جميعها بعظمة الصانع، ووحدانيته وعدم وجود تناقض في الصنعة، يثبت أن الصانع واحد، لا شريك له في صنعته، فلو تعددت الآلهة لظهر التناقض والخلاف ولعلا بعضهم على بعض.

والانسجام بين هذه المخلوقات التي نشاهدها صباح مساء، وكلها طائعة، تسير حسب نواميس ثابتة، لا تتخلف، ونظام دقيق في البدء والنهاية؛ فمن شمس تطلع في الصباح، وتغيب في المساء، بنظام دقيق لا يتخلف إلى قمر يبدأ في أول الشهر كالعرجون القديم، ثم بدراً، ثم يرجع يصغر كما بدأ، بدون تخلف ولا انقطاع.

كل هذا يوحي بوجود منظم واحد، مشيئته هي المسيطرة، وإرادته هي النافذة فوحدة المصنوع تدل على وحدانية الصانع قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ...﴾ [الأنبياء: ٢٢] ويعني بها الأرض والسماء كما قال سبحانه وتعالى أيضاً في نفس الموضوع: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا ﴾ [الإسراء: ٢٢]. ويبدأ الداعية المستنير، عليه السلام، بتعليم الخلق التفكير الصحيح المنتج المثمر في حل العقدة الكبرى التي هي أساس كل عقيدة وفكر عميق.

وينظر عليه السلام، وكأنه يخاطب نفسه، فيشرح لنا ملاحظته على ما شاهده بعين بصيرته الثاقبة الواعية، عندما اخترقت حجب الضلال الكثيفة، فظهرت له الحقيقة بنورها الساطع الذي بدد ستائر الظلام، وذلك عندما اهتدى إلى الطريق

المستقيم الصحيح.

فنقل لنا ما شاهدته بصيرته النافذة من ملكوت السماوات والأرض، وما تحويه من عبر وآيات، لنؤمن بما آمن به ونطمئن بما اطمأن فنتيقن بما أوحى إليه نور الحقيقة من يقين ﴿... قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ...﴾[الأنعام: ٧١].

إنه نفس الكوكب الذي نظر إليه بعين البصيرة، ونفس القمر، ونفس الشمس التي كان ينظر إليها، وننظر نحن إليها عادة بأعيننا، في كل ليلة وأنه نظر إليها من زاوية جعلته يشرف على الحقيقة فيها، فرأى الحق ناصح البياض، صافي الجسم، لا شبه فيه، واضحاً وضوح شمس الضحى.

فنقل لنا عليه السلام، ما شاهده بكل أمانة ودقة وإثارة ذلك لنهتدي كما اهتدى، ونؤمن كما آمن، ونسعد كما سعد.

إذا قطع ذلك السلك الموصل من مصدر الطاقة إلى الآلة، هل تدور تلك الآلة؟ وإذا توقف مولد الكهرباء، هل تضئ تلك المصابيح؟ وإذا غاب مدير هذا الكون واختفى، فهل تدور تلك الأجرام السماوية والحياة الأرضية؟ لا لن تدور.

ومن صفات الرب الحقيقي الديمومة. وهل ينام من يحمل على رأسه سطلاً من الماء؟ والرب سبحانه وتعالى، لا تأخذه سنة ولا نوم وصفاته تختلف عن صفات مخلوقاته «ليس كمثله شيء».

وقد جعل إبراهيم عليه السلام من فناء المخلوقات نقطة ضعف أصنامهم فهي مصنوعة بأيديهم، وهم إلى الموت والزوال سائرون مهما طال بهم العمر، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

قال سبحانه وتعالى يصف بدء حجة إبراهيم، عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

وكان بحثه هذا وعمق تفكيره ليلاً: يبحث عن الحقيقة في صفحة السماء بين تلك البروج. قال سبحانه وتعالى عن أهمية التفكير والعبادة ليلاً: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزّمل: ٦].

وترديده لكلمة "هذا ربي" حيث فيها أعظم الخلاف وأشده بين المؤمنين والمشركين عبر التاريخ.

فخلافهم في الإلوهية قليل بسيط، وأما في الربوبية فهو عظيم متسع كما أن في كلمة «ربي» من القربى والاستعانة واللين والرحمة ما فيها.

إن استعماله كلمة "أحب" هو التقيد بما يمليه عليه المحبوب، فهو أسير بيده، مطيع له، متيقن ومطمئن إلى نصحه غاب ذلك الكوكب الذي راقبه، ولحق به القمر، فخاف عليه السلام، من الضلال والسير في طريق معوج، فيه البعد والشقاوة؛ فلا ينال مبتغاه، من معرفة الرب الحقيقي الذي لا يضل ولا يشقى، من آمن به وعمل بأمره.

لم يجد، عليه السلام، فيما يشاهده من المخلوقات، مما كان يعبد قومه ويجلون، ما يوافق الفطرة، ويقنع العقل السليم، فلجأ واستعان بالرب السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية يطلب منه تفريج كربه وأي كرب أعظم من الضياع فطلب الهداية.

وكلمة «أفل» تعني غاب وتغيرت حاله وهذه ليست من صفات خالق المخلوقات المشاهد فيها والخفي العظيم والحقير لأنها كلها حادثة وكلها تفنى ومن كانت هذه حاله فليس برب يستحق العبادة فمن هنا قال: ﴿... قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [الأنعام: ٧٧].

وأي ظلم هو أعظم من توجيه العبادة لغير المنعم الخالق، والقوم الظالمون هم المشركون، سواء قومه أو غيرهم فكل من يوجه الشكر والتقديس لغير الخالق الحقيقي وينحرف عن عبادة صاحب الفضل الأساسي في الإيجاد والرزق فقد ظلم.

فمن هنا نوه بتحقير آلهة قومه، حيث كانوا يعبدون مع الأصنام الكواكب والقمر والشمس.

وأما استعماله لكلمة "هذا» بدل «هذه" للشمس ذلك ليبعد شبهة التأنيث عن الرب الحقيقي.

واعتبر- عليه السلام- مغيب أكبر المخلوقات المشاهدة لنا في هذا الكون الطريق المسدود في بحثه عن الخالق الموحد بين هذه المخلوقات المحسوسة الملموسة المشاهدة؛ فجميعها لم توافق الفطرة، ولا تطمئن لها النفس الصافية، والفكر

العميق الثاقب.

فمهما طال عمر تلك الشجرة الباسقة؛ فمصيرها إلى الهرم فالزوال ومهما طال عمر ذلك الإنسان أو الحيوان فمصيرها إلى الموت؛ والجميع عاجز ومحتاج ومخلوق من الذرة الصغيرة إلى النجم الكبير.

وكانت نتيجة هذا التفكير العميق المستنير أن أعلن عليه السلام إسلامه واستسلامه لمن تخر له جباه العقلاء العلماء بحق أولئك المستنيرون بنور الهداية لخالق الكون، ذلك الذي لا تتفق صفاته مع صفات أصنامهم، ولا مع معبودات قومه، فتبرأ عليه السلام من الشرك، وقال كلمته النيرة - عليه السلام- هذه:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] وقوله عليه السلام "وجهت وجهي" أي ثبت نظري كما يتوجه المصلي في صلاته نحو الكعبة المشرفة، لا يلتفت بل يصوب نظره نحوها، مائلاً عن كل معبود باطل، ولا يدين إلا لله، خالق السموات والأرض ومن هنا أعلن براءته من شركهم.

ومن الملاحظات على الطريق التي سلكها - عليه السلام- كنبي يبصرنا ويعلمنا أسلوب الدعوة.

- ذكر الأفول بدل الطلوع لتقوية الحجة على عدم الديمومة لتلك المعبودات الضعيفة الحقيرة.
- بدأ هجومه على دين أبيه ليصغي إليه بكل جد واهتمام، ويتفهم رأيه، وهذا نوع من الهزة الفكرية للانتباه.
- ثم تأخير إعلان براءته من شركهم لآخر المجادلة، وذلك خوفا من إغلاقهم باب تلك المجادلة معه.
- ثم استعماله لكلمة ربي بحثا أمام مستمعيه عن حقيقة الرب، فهو لا يتمثل في أصنامهم التي يعبدون، فمجرد البحث عن رب يطمئن له العقل السليم، وتصغى له النفس الصافية هو طعنة في معبوداتهم العاجزة الحقيرة.
- ثم التدرج في البحث حيث بدأ بالكوكب الصغير – حسب مشاهدته – وانتهى بالشمس الكبيرة، وأثبت عن طريق اشتراك الكوكب والقمر والشمس في الأقوال جميعها، أنها لا فرق بينها؛ فجميعها تغيب، فهي

ليست إلها يستحق التقديس والتكريم والعبادة.

- ثم استعانته بالرب الحقيقي ليوصله للنتيجة الصحيحة رغم أنه قد يكون على علم بتلك النتيجة، ولكنه يريد إسماعهم، وكأنه مثلهم في ضلال، فيسحبهم في آخر المطاف لشط الأمان والحقيقة البينة والخط المستقيم.
- تحول الخطاب، حيث بدأ بمخاطبة أبيه ثم تحول الخطاب لقومه؛ حيث تبرأ من شركهم.
- وما إن تحقق قومه وابوه من نتيجة هذه المجادلة واستصغاره واحتقاره لأصنامهم، وبكل شجاعة وتحدٍ، أخذوا في تخويفه من نتيجة انحرافه عن عبادة أصنامهم، وتركه لطريقتهم وابتداع طريق جديد ودين جديد، فيخوفونه من غضب تلك الأصنام، وانتقامها الشديد؛ فيجيبهم، وبكل ثبات وتحد وصمود بأنهم أحق بالخوف منه، إذ لم يخافوا سطوة وانتقام الرب الحقيقي القادر الجبار؛ فكيف به يخاف أوثاناً لا تضر ولا تنفع؟
- ومن هنا ظهر له فكرة إثبات ضعف هذه الأصنام بطريقة عملية، وانه وحده وبدون جيوش جرارة ولا معونة من عشيرة، ولا حتى من أب، قادر على تكسيرها، وإذلالها، وأقسم على هذا التحدي، وعلى تحطيمها، وكذلك فعل، وجعل عمله هذا هزة أخرى لقومه ليفكروا ويتأكدوا من ضعفها؛ فينبلج لهم نور الحقيقة، وتذوب حبات الرين من قلوبهم.

ومع كل هذه البراهين البينة لم يؤمنوا بالله الواحد الأحد فنقول فيهم: لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

هذا ما ينطبق على حالهم، وهم يتخبطون في دياجير الظلام، ومستنقع الجهل، كما فعل آباؤهم من قبل.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨١].

وهذه الحجة والمجادلة والاستهتار بأصنام قومه مركز تكريمهم وتقديسهم، وعدم الخوف من تلك الأصنام هو الهام من الله وتوفيق الهادي العليم للرد عليهم

في نقطة ضعفهم، وللتشهير بأصنامهم، وإبراز ضعفها، ثم التحدي لها ولمن يعبدها كل هذا هو أكبر دليل على عدم قدرتها لو كانوا يعقلون كما نقول، سيراً مع هدي كتاب الله، وهذه الحجج البينة التي أظهرها إبراهيم، عليه السلام، لقومه: لو أن واضعي تلك القوانين والتشريعات المفروضة على البشر في هذا العصر، المتحدية لنظام الله في القرآن الكريم؛ فيها من الصلاح والحكمة والعدل ما يمنع الفساد، ويصلح المجتمعات، ويحارب الرذيلة فنعما هي؛ ولكنه حكم الجاهلية الذي لفظته الشعوب عبر العصور، وكان سبب شقاؤها وقال فيه رب العالمين ذاماً له ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وهذا الاستفهام الإنكاري الذي نطقت به هذه الآية الكريمة فيه التعجب مما يريده هؤلاء الجاهليون من شرائع ونظم هي مصدر شقاوتهم وتعاستهم بل وحروبهم، وتركهم لحكم الله العالم بما يصلحهم، الحكيم بإدارتهم، حيث أنه قد حدد الضار ونهانا عنه، وحدد النافع وأمرنا بالأخذ به - سبحانه وتعالى - عما يشركون.

ومعنى "حاجه" أي خاصم قومه واستعمل كلمة «تتذكرون» ليرجعهم إلى الفطرة، وفيهم مثاله البين الواضح. وكلمة «تعلمون» ليستنهض فيهم عمق التفكير.

وقوله «إلا أن يشاء ربي» فقد احتاط - عليه السلام- خوفاً من نزول نيازك من السماء، أو يصاب بضربة شمس في يوم حر أو صاعقة؛ فيتخذ قومه عليه مأخذاً: أن الضرر الذي أصابه سببه غضب أصنامهم عليه.

علماً أن هذه الأمور الطبيعية، لا تأتمر بأمر أصنامهم بل هكذا يخيل إليهم، ويستزلهم الشيطان، وإنما تحدث هذه الأشياء بمشيئة الله وإرادته - سبحانه وتعالى - وما هذه الأمور التي تحدث إلا وسائل وأدوات بيد الله وتسير حسب مشيئته ولكن قصر النظر، وسطحية التفكير كافية لقلب الحقائق.

ويحضرني بهذه المناسبة قصة الأمة الرومية الصحابية المسلمة وقد أذاقها أبو جهل كؤوس العذاب مترعة حتى عميت فيقول لها ذلك المجرم المشرك:"لقد أعمتك اللات والعزى". فكانت تقول: "وما تدري اللات والعزى من يعبدها. ولكن هذا أمر السماء وربي قادر على رد بصري" فرد الله لها بصرها.

وقوله عليه السلام: "فأي الفريقين" هو إعلان التباين والتفريق بينه وبين قومه فهو بمفرده فريق الموحدين وهم فريق المشركين. والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ كما واعتبر نفسه أمة وحده، رغم أنه كان فرداً أعزل ولكنه صاحب

الرأي السديد، والحجة المقنعة القوية؛ فالأمر لا يتعلق بكثرة الآراء بل بالصواب منها.

ثم تأتي الآية قاصمة الظهر التي أرهبت حتى صحابة رسول الله المؤمنين المجاهدين الأتقياء حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والاهتمام في دقة تلقي صحابة رسول الله للقرآن الكريم، والعمل على تطبيقه في حياتهم، والفقه فيه، والاتصال المباشر بين آيات الله، وقلوبهم وعقولهم؛ فقد ارتعدت فرائصهم عند تفسيرهم وفهمهم لها؛ فقد روي في الصحيحين: أن هذه الآية الكريمة لما نزلت شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا يا رسول الله: أينا لم يظلم نفس؟ فقال ﷺ: ألم تسمعوا إلى قول لقمان لأبنه: ﴿...إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣] فالظلم في هذه الآية يعني الشرك.

وفي هذه الآية بشرى لمن آمن وعمل الصالحات؛ فهو في مأمن من العذاب يوم القيامة؛ حيث لا آمان إلا من أمنه الله. وفي الأمان يشغل بال الجميع، ويعمل له كل ذي حجر ويحذره كل مؤمن؛ وهو في منتهى الجدية. ومن هنا نالوا الرضى والحماية من الله وذلك لأنهم سلكوا طريق الصلاح والرشاد.

وهذه الحجج والآيات التي هدى الله رسوله إبراهيم إليها؛ وذلك في قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ . ..﴾ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿. .. لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٨٢] بأمر الله وهديه وقد نسبها، سبحانه وتعالى إلى نفسه؛ حيث قال: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ ...﴾ [الأنعام: ٨٣] وفي هذه الحجة التشريف والتكريم، ورفع الدرجات والذكر الحسن لإبراهيم عليه السلام في هذه الدنيا والآخرة.

- وقد كثرت علامات الاستفهام أثناء هذه المناظرة؛ وذلك لإحراج قومه - عليه السلام- الذين ضل سعيهم، ولم يستطيعوا توضيح معتقدهم، أو الإجابة على سيل الاستفسارات المحرجة التي أمطرهم، عليه السلام بها، وهم أمامه أذلاء صاغرون؛ قد بهتوا، وعقدت ألسنتهم؛ مما يدل على كثرة

الشبهات عندهم مع ضعف عقيدتهم ومعتقدهم؛ فرموا بثقل الإجابة على عاتق آبائهم الذين كانوا مثلهم مشركين ضالين مقلدين جهلة.

- وهكذا ما أرسل إلى رسول أو نبي إلا لتصحيح معتقد قومه الضالين الخارجين عن الخط الصحيح، وإرجاعهم للدين القويم، دين الفطرة، والسير على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وأصلح بالهم.
- ورفع الدرجات يكون بالعلم والفهم والفقه، كما يكون بالذكر الحسن، وشرف الرسالة، ونشر الدين الصحيح.
- وقد خط - عليه السلام- في هذه القصة طريقاً للدعاة للسير فيها، والاستنارة بهديها.
- هذا وقد نسب - سبحانه وتعالى - كل الفضل والخير على إبراهيم وذريته إلى نفسه سبحانه وتعالى، إذ أنقذه من نار قومه، وجعلهم ذرية صالحة وجعل لهم أئمة يهدون الناس – بأمر الله – وينشرون دين التوحيد في المعمورة كل هذا من كرمه وفضله، سبحانه وتعالى بل حصر الإمامة في ذريته من دون خلقه، وما في ذلك من ذكر حسن، وشرف رفيع.
- ومن رحمته، سبحانه وتعالى، بهم أهل البيت، أن وهب لهم ذرية القيادة لأمة التوحيد كما وصفهم بالمحسنين والصالحين وهي أشرف وأجل صفات المتقين الأبرار.
- وقد فضل الأنبياء من ذرية إبراهيم على العالمين كما أن من فضله سبحانه وتعالى، على ذرية إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - أن جعل محمداً رسول الله - صلى الله عليه وسلم- من تلك الذرية الصالحة.
- وقد اعتبر إبراهيم، عليه السلام واسطة العقد بين الرسل والأنبياء، فقد مُدح مع من سبقه منهم، ومع من لحق به.

وذكر بعض الرسل والأنبياء في هذه الآيات لا يعني غمط حق آخرين قال سبحانه وتعالى في هذا الأمر ما نصه: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] .

أي وجود غير من ذكر بالاسم في تلك الآيات من آية ٨٤- ٨٦ من سورة

الأنعام؛ فقد اختار سبحانه وتعالى، دعاة ومرشدين آخرين؛ وهذا الفضل والتكريم والذكر الحسن، يشمل أمة الإسلام، الأمة الوسط، ويرجع الأمر والتوفيق له - سبحانه وتعالى - حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

هذا وقد شمل خير هذه الآية الكريمة كل من اهتدى هدي الإسلام، ودعا عباد الله للدين الحنيف وجاهد لنشره، وضحى من أجله.

وقوله - سبحانه وتعالى - مهدداً ومتوعداً، حتى الرسل والأنبياء ﴿.. وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] والحبط هو ولوغ وأكل الدابة من طعام مضر لها وعندما تمتلئ معدتها به تنتفخ، وقد يؤدي بها إلى الموت.

وهو مثال على من يتكالب على أكل ما في الأرض، ولا يشبع ولا يقنع فيأكل الحرام والحلال والكلام موجه لأنبياء الله، تطهيراً وتشريفاً، والله هو الحافظ، حيث اختارهم من بين خلقه لطهرهم وثباتهم على الحق. ومع هذا اعتبرهم بشراً، وعليهم تقع مسؤولية نشر الدين، وتحمل الأذى في سبيل الله والذي تنوء به الجبال الراسيات.

وهذا التهديد والوعيد يشمل من يتعمد الكذب على الله؛ فيدعي النبوة وهو كاذب مفتر أو يدعي قوة البيان، وأنه قادر على معارضة كتاب الله، القرآن الكريم، وأنه يأتي بمثله.

قال الله - سبحانه وتعالى - مهدداً هذا النوع من الناس: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ ...﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد خاطب رب العزة سبحانه وتعالى رسولنا محمداً ﷺ بقوله: فالتهديد والوعيد شامل للجميع، لا فرق بين الأنبياء والرسل وباقي البشر.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فهؤلاء الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله، ونزل عليهم الكتب، وهداهم لما فيها من أحكام، وجعلهم أنبياء يدعون للدين. وكلمة "هؤلاء" تشير إلى كفار مكة وإعراضهم وتجبرهم ومقاومتهم لدعوة التوحيد.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿... فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ ...﴾ هو إشارة لمن نزلت العظة عليهم مباشرة من العرب وقريش خاصة فبين لهم يا محمد أنك سائر ومقتد بمن سبقك من الأنبياء والرسل المصطفين الأخيار.

وما تذكيرهم بإبراهيم، عليه السلام ودعوته بتوحيد الربوبية، وما عاناه من مشقة، لتحطيم أصنام قومه وهم يدعون أنهم سائرون على نهجه، وعلى دينه، وأنهم أوفياء في خدمة بيت الله الحرام إلا ليكون ذلك حجة عليهم، لشركهم وتدنيس بيت الله الحرام بأصنامهم التي يعبدون.

قال سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله الكريم محمداً عليه السلام: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وكلمة"أولئك" تشير إلى الأنبياء والرسل، ويُطلب من محمد رسول الله أن يقتدي بهم بتوحيد الربوبية والألوهية.

كما ويُطلب منه إخبار الناس بأنه لم يُبعث جابياً، بل هادياً؛ فلا يطلب منهم أجراً، ولا منّة، بل يذكرهم بيوم الحساب الذي لا مفر منه وقد ربح من اتقى، وشقي من أعرض وتولى.

٢- مجادلة إبراهيم عليه السلام لأبيه لترك عبادة الأصنام

للتشابه بين ما ذكر عن إبراهيم عليه السلام، وزوجه العجوز العقيم، وإنجابها بعد سن اليأس لولدها إسحاق عليه السلام وما حدث مع نبي الله زكريا - عليه السلام- ومولد ابنه، يحيى عليهما السلام، من امرأة عاقر، وقد كبر سنه، عليه السلام، ونحل عظمه.

ثم قصة مريم بنت عمران، وقد أنجبت ولداً من غير أب، بأمر الله.

هذه المعجزات المتشابهة ذكرت متتالية مع ما تميز به هؤلاء الأنبياء الثلاثة: إبراهيم، ويحيى، وعيسى عليهم السلام، من البعث إليهم بالرسالة؛ لحمل الدعوة ونشر الدين، في سن مبكر.

ذكّر يا محمد قريشاً بقصة إبراهيم عليه السلام الذي يشنف كل منهم بالانتساب إليه والتشرف بالقربى منه، والاعتزاز به، كبان للكعبة المشرفة، والداعي للحج إليها بأمر ربه قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قال سبحانه وتعالى يأمر رسول الله محمداً، أن يقصص على قريش بعض أخبار جدهم، إبراهيم الخليل، عليه السلام لعل في هذا الذكر ما يفتح قلوبهم المغلقة لدخول نور الإيمان إليها، فتهتدي: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

وكلمة «صديق» أبلغ من كلمة صادق؛ فقد صدق في دعوته، وفيما تعهد به، ولم يخلف وعده. وفي هذه الآيات المباركة مجادلة في أسس العقيدة، بينه عليه السلام، وبين أقرب الناس إليه، وهو آزر أبوه.

وهذه المناظرة بين الابن الحليم والأب الجاهل الجبار، تصلح نموذجاً لدعوة الرحم والأقرباء؛ وذلك فيما احتوته من أدب وحرص ورحمة ومن إخلاص الابن البار لأبيه المشرك المعاند. فهو عليه السلام، يستعمل الإثارة تارة والتوضيح والبيان تارة أخرى ورغم تلك المعاملة الخشنة السيئة التي توحي بالقنوط من ذلك الأب المشرك، والتهديد والوعيد ثم الرمي في النار الملتهبة،

وهو أشبع وأشد أنواع العذاب، ثم النفي من الوطن، فقد رحم عليه السلام جهل أبيه، ودعا له بالهداية، ولم يقنط، إلى أن أخبر علام الغيوب، بأن أباه من أهل النار.

قال سبحانه وتعالى يصف تلك المجادلة كنموذج يستعمله الداعية الذكي النشط، حينما يبتلى بغباء وكفر وتحجر أحبائه وعشيرته المقربين له.

فرسول الله، إبراهيم عليه السلام، يبتلى بأب مشرك معاند معرض، فيعطينا عليه السلام درساً في دعوته لهذا الأب، فيستفتح كلامه بأحسن عبارة إثارة، وهي "يا أبت" ويستمر أثناء حديثه الشيق الواضح بترديد كلمة العاطفة الجياشة هذه.

ثم يوضح عليه السلام، أعظم صفة يستفيد منها العابد من المعبود؛ فالسمع والبصر والمساعدة والمساندة إذا اجتمعت في المعبود فقد استحق التقدير والحمد والشكر والطاعة، هذه الصفات غير موجودة في الأصنام.

ويحضرني بهذه المناسبة ما قالته الصحابية الجليلة، أم أنس بن مالك، الغميصاء بنت ملحان حين تقدم لخطبتها أبو طلحة الأنصاري بعد موت زوجها مالك وكان أبو طلحة هذا لا يزال على كفره حيث قالت له: «أما إني فيك لراغبة وما مثلك يرد، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، فإن تسلم فذاك مهري» ثم قالت له: «يا أبا طلحة، ألست تعلم أن إلهك الذي تعبده خشبة نبتت من الأرض نجرها حبشي بني فلان؟ قال: بلى، قالت: «أفلا تستحي أن تعبد خشبة؟» فيطرق مفكراً؛ وقد ألجمته الحجة. ووضحت له الحقيقة؛ فلان قلبه واستنار عقله، واهتدى، فأسلم وتزوجها، رضي الله عنهما.

وبنفس الأسلوب واللطف والأدب والحلم يستمر إبراهيم عليه السلام، في وعظ أبيه، قائلاً مخبراً له.

قال الله - سبحانه وتعالى - على لسان إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ٤٣].

إنه رسول من الرب الحقيقي، وعنده من فضل الله علم لا يعلمه أبوه وفي هذا العلم تنظيم الصلة بين العبد وربه هو النور الذي ينير للعابد المؤمن طريق الخير والفلاح، إنه الطريق المستقيم، لا اعوجاج فيه، ومن ساره اهتدى ومن تفرقت به السبل ضل، وهو وحي من الحكيم العليم. ثم يتابع، عليه السلام نصحه لأبيه فيكشف لهذا الأب كيد الشيطان للبشر، هذا الشيطان العاصي لربه، من سار على دربه فقد خسر الدنيا والآخرة.

وعبادة الشيطان تتمثل في الاستجابة لإغرائه، ووسوسته والسير معه، في الطريق الموصل لأبواب جهنم، وساءت مصيرا. قال الله سبحانه وتعالى، على لسان إبراهيم، عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [مريم: ٤٤].

ثم يتابع، عليه السلام نصحه بأسلوب شيق، وكأنه يخاطب قلب أبيه، وبكل أدب وحرارة نصح.

قال الله - سبحانه وتعالى - يصف هذا الموقف: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٥].

يظهر عليه الخوف من موت أبيه كافراً وهذا أعلى أنواع الحنان والحرص ومن اتخذ الشيطان ولياً فقد هلك وضل.

وقد حصر الولاء المنجي في قوله، سبحانه وتعالى:

- فيختم - عليه السلام- هذا النصح والعظة بالخوف على أبيه من متابعته الشيطان العاصي لربه، الملعون في الدنيا والآخرة. ومن سار على درب الشيطان ووالاه فقد مسه العذاب والهلاك والنكال، ومصيره النار وبئس القرار.
- رغم كثرة جنايات الشيطان على آدم وأبنائه. .. ولكنه، هنا، ذكر ما يتعلق بالكبر، وعصيان الرب، لأنه أعم شروره.
- واستعماله - عليه السلام- لغة الترهيب والتخويف في هذه المجادلة. ذلك لعل ما لم يجلبه الرفق واللين يجلبه الوعيد.
- ورغم هذه العظات، وأدب الحديث، وألفاظ العطف، وقد وصل الأمر للتوسل كل هذا ليزيل، عليه السلام، غشاوة الكفر، عن بصيرة أبيه، ويمحو الرين من قلبه. ولكنه للأسف يجابه بالتحجر، وعمى البصيرة، والتمسك بخيوط الجهل التي نسجها الآباء والأجداد، جهلاً وغباء، واتباع شيطان مارد. وقد تابعهم في ضلالهم الأبناء في معتقداتهم الواهية تلك التي أخذت بدون بحث ولا تمحيص؛ فكان التخبط والتردد والتقليد الأعمى، وتحكيم الهوى والنفس الأمارة بالسوء.
- وهذه الآيات البينات هي تذكرة وعظة وتنوير للملأ من قريش المقلدين

للآباء الجهلة لقد أغلق هؤلاء من قريش كوى النور، ووقفوا حاجزاً قوياً لمنبع الهداية، رسول الله محمد ﷺ وذلك في الفترة المكية من نزول الوحي.

ليتذكروا موقف ذلك المعاند الجاهل المشرك من ابنه البار الحليم النبي الرسول. فما أغنت رسالة ابنه عنه، حين تمسك بالكفر والضلال، وسار في طريق المشركين الضالين المضلين، حيث ساقهم عدو آدم وذريته، ذلك الشيطان الرجيم، فأوردهم دار البوار، جهنم يصلونها، وبئس القرار.

لم يستجيب آزر لدعوة الحق؛ فينجو فأورده العناد والجهل مورد الهلاك.

قال سبحانه وتعالى يصف موقف آزر، هذا الأب المشرك من دعوة الحق:

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦].

فقد هدد ناصحه، ابنه إبراهيم، بالرجم أو الطرد، مقابل الحلم والأدب، والنصح والحرص، الذي أظهره إبراهيم، عليه السلام، في دعوته لأبيه حرصاً على سلامته، وشفقة عليه، ورحمة به، فإبراهيم - عليه السلام- يستفتح كل عظة لهذا الأب القاسي الجاهل الغبي بكلمة الحنان والعطف والرفق، فيقول: "يا أبت" ويقابله أبوه بقوله له "يا إبراهيم" بكل صلف وجفاء وكأنه غريب.

لم يقابل حجج وبينات إبراهيم - عليه السلام- بما يثبت صحة دينه، بل ولعجزه عن ذلك، استعمل لغة العنف والقطيعة لتغطية ضعف حجته أمام نور البينات القوية والدلائل والبراهين الواضحة التي نطق بها إبراهيم، عليه السلام، أثناء دعوته، ونصحه له.

ورغم موقف هذا الأب، وإغلاقه أبواب الخير، ومنافذ النور أمام شآبيب رحمة الله، فقد استمر إبراهيم في دعائه بالهداية لأبيه قال سبحانه وتعالى في رد إبراهيم على عناد أبيه: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧].

وظنه، عليه السلام بربه خيراً فكان يتأمل حسب وعد أبيه له أنه سيسلم ولكنه لم ينجز هذا الوعد، بل استمر في غيه، فأوصله إلى دار البوار.

وقد أخبر رب العزة المطلع على الغيب إبراهيم عليه السلام، أنه لا أمل في إسلام أبيه، فتوقف – بأمر ربه – وأخذ في الدعاء لفروعه بدل أصوله قال الله سبحانه

وتعالى في هذا الأمر مخاطباً محمداً رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

- ولا تضارب في كلمة «سلام عليك»، رغم كفر أبيه وتعنته وتجبره وتمسكه بالكفر. قال سبحانه وتعالى في وصف أخلاق المسلمين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].
- وهذه الآية الكريمة موجهة لقريش من آمن منهم أخذ يستغفر لأهله، ويظن خيراً فيهم وأملاً بإسلامهم وقد اتخذوا إبراهيم - عليه السلام- قدوة لهم فذكرهم سبحانه وتعالى بتوقف إبراهيم عن الدعاء لأبيه، عندما علم إصراره على التمسك بالكفر، وأنه من الهالكين. وهذه عظة للمسلمين وتنوير لهم، بجعل موقف إبراهيم، عليه السلام مع أبيه درساً وقدوة لهم فلا يتمادون في أملهم في إسلام أقربائهم (إن الهدى هدى الله) ومع هذا فلا قنوط، وعاملهم في الدنيا حسنة.

قال سبحانه وتعالى في موقف إبراهيم من عناد أبيه وقومه وتهديدهم له ذلك التهديد الذي وصل في التنفيذ إلى رميه في النار الملتهبة: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨].

وقوله، عليه السلام ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ تنويه بشقاء قومه، لأنهم يدعون ويطلبون المساعدة والغوث من أصنامهم العاجزة المصنوعة بأيديهم. أما هو فلن يشقى لأنه يطلب العون والمساعدة من الرب الحقيقي الخالق القادر، فيستجيب لدعائه ويعطيه ما يتمناه ويطلبه، ثم يعلن عليه السلام اعتزال دينهم بل وديارهم ويفوض أمره إلى الله.

هذا وقد التفت لفروعه ومستقبله بعد أن فقد الأمل في هداية أصوله حيث أغلق أمامه باب الخير والصلاح لأصوله. ولم يبق أمامه من أمل، إلا بالهجرة للبلاد المباركة، ونشر الدين في ربوعها – وذلك بأمر ربه-.

وكان وقع ما حصل لإبراهيم مع أبيه وقومه عظيماً على صحابة رسول الله، وخوفهم من دعائهم لأقربائهم المصرين على الشرك المتمسكين بالكفر؛

فبين لهم سبحانه وتعالى، هذا الأمر بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٥].

وفي هذه الآية الأخيرة من هذه الآيات التي تبين أن لا عقوبة إلا بعد النص؛ فذهب خوف صحابة رسول الله لكونهم كانوا يستغفرون لأهلهم من المشركين، وتوقفوا عن الاستغفار لهم عندما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم؛ تمشياً مع أمر الله، سبحانه وتعالى.

قال سبحانه وتعالى، مبيناً فضله ونعماءه على من اعتزل قومه، وهاجر من أجل دينه واستجابة لأمر الله، وخدمة لدعوة التوحيد، وجهاد في سبيل الله: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩ - ٥٠] ومعنى قوله: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي يفتخر الناس بالنسب إليهم، والتقرب منهم، واعتبارهم قدوة في الخير والصلاح، وهذا كله من لطف الله ورحمته بأهل التقوى والصلاح.

- وفي صلاة المسلمين يجب ذكر إبراهيم وآله مع ذكر محمد وآله وذلك لقوة الربط بينهما، والتذكير بالصلة بين الرسولين.
- ويكفيه تكريما أن دعوة الإسلام هي استئناف لدعوته عليه السلام، واستمرار لدينه الحنيف حيث يقول رب العالمين في كتابه العزيز: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

- والمخاطب في هذه الآية الكريمة هو رسول الله ﷺ. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ....﴾ [الحج: ٧٨].
- والخطاب لقريش خاصة وللعرب عامة لنسبهم المتصل بإبراهيم عليه السلام.
- ومن لطف الله بإبراهيم عليه السلام، أن آنس وحدته بأبناء وحفدة، وحصر النبوة في ذريته.
- وقد كرمه ربه ببناء بيت الله الحرام بمكة المكرمة ونادى بالحج له، واحتضنته ذرية إسماعيل ابنه عليهما السلام.

وتستمر الآيات المباركة بذكر كوكبة من الرسل والأنبياء ممن اصطفى رب العزة، ينقلون غيث ورحمة السماء. ثم ذكر طاعة واستسلام وتذلل هؤلاء الأنبياء لذكر الله وتحملهم مشاق الدعوة وجهادهم من أجل هداية الناس.

٣- ذكره ﷺ لنعم الله عليه
وتبكيت وتذكير قومه العصاة

بعد أن أفاضت الآيات بذكر الصراع بين الإيمان والكفر: بين رسول الله موسى - عليه السلام- وفرعون المتأله ثم انتهى هذا الصراع بقوله، سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٥ - ٦٦].

﴿ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ هم فرعون وجنده ذلك الملك المتأله الذي كان يتبجح بجريان الأنهار من تحته فكان هلاكهم بالماء الذي اعتز به.

وقال سبحانه وتعالى مبيناً وموضحاً نتيجة الظلم والغطرسة: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٧].

وفي غرق فرعون وقومه عظة تبين قدرة الله وسنته في صرع المتجبرين المتكبرين في أرض الله وما هذا الانتقام عن قريش ببعيد، والهاء في كلمة "أكثرهم" ترجع إلى قريش حيث قد سلك كفارهم – وهم الأغلبية – طريق من سبقهم من كفار الأمم السابقة كقوم فرعون.

وهذا هو المقصود بالقصص والعبر التي ذكرت في كتاب الله لأمم سبقت قريش في الصلف والتكبر والطغيان والعصيان، لتتعظ وتسير طريق الصلاح والتقوى، وتتجه نحو الخالق القادر، فتعبده بدل المخلوق الضعيف. وختمت هذه العظات بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦٨] هو العزيز في انتقامه من الكفرة الطغاة والرحيم بالمؤمنين والأنبياء والصالحين.

وفي هذه الآية الكريمة من التهديد والوعيد والتحذير من استمرار قريش في غيها، ومقاومة دعاة الإسلام، والبطش بهم وتعذيبهم ما فيها، مما اضطر بعضهم للهجرة من جوار بيت الله الحرام إلى الحبشة، ثم إلى يثرب، كما مات بعضهم شهداء من التعذيب وقد كان هذا قبل قيام الدولة في المدينة.

وبعد هذه المقدمة التي تهز الجبال الراسيات، وتكشف أسمك الستائر

المغطية للحقيقة، المانعة من وصول النور لتلك الصدور المظلمة، التي تكاد تقفل بما ملئت به من الرين، والعقول المتحجرة التي لم تعد تتقبل إلا ما وجدت عليه الآباء بدون تمحيص ولا أدنى تدقيق.

يذكر سبحانه وتعالى لقريش خاصة وللعرب عامة قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الكفرة الظالمين، ووعظه عليه السلام لهم وما في قصته هذه من إثارة لقريش نحو هذا الجد النبي الصالح، محطم الأصنام، الداعي لتوحيد الله في الأرض ذلك الذي تعتبره قريش قدوتها، وتفتخر بالانتساب إليه باني الكعبة المشرفة، المنادي للحج إليها – بأمر ربه-.

يطلب رب العالمين من رسوله الكريم محمد ﷺ أن يخبر قريشاً بمجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٠].

وقوله عليه السلام لأبيه وقومه ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وهو يعلم أنهم يعبدون الأصنام من دون الله هو نوع من التبكيت والإثارة لكي يصغوا لما سيعظهم به ويدعوهم إليه. وكان جوابهم المتوقع أنهم مقيمون على خدمة وعبادة تلك الأصنام كما عهدهم من قبل، لم يتحولوا عنها.

هذا الجواب يدل على سخفهم، وتماديهم في الضلال والباطل والتمسك بعبادتها بدون حجة، ولا دليل، ولا مبرر، ولا سلطان. إنما وجدوا آبائهم لها عابدين فشربوا من ذلك الكأس المنتن، بدون نظر ولا تفكير. ثم يبدأ عليه السلام بفتح كوى النور، ومسح ذلك الرين المانع من وصول ذلك الفكر المستنير، والرأي الصائب الذي يخاطبهم به لتلك القلوب الغلف، ويبصرهم بخطورة السير على خطا الشيطان عدو الله والإنسان.

كما بين لهم عجز أصنامهم عن سمع دعائهم أو رؤيتها لمن يعبدها، وأنها لا تنفع من يقدسها ويجلها، ولا تضر من يعاديها، ويتحداها، ويحتقرها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧١ - ٧٣].

وكان جوابهم عن هذه الأسئلة المحرجة لهم لجهلهم أن قالوا: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤].

فهروبهم من الجواب المقنع، وتحويل الأمر لآباء ماتوا بجهلهم وغبائهم ما هو إلا لضعف الدليل القوي المقنع، والبرهان الواضح الذي يسند تلك العبادة. وهكذا كل تقليد في العبادة، وضع حسب الهوى، بدون تمحيص، ولا تدقيق، هو منكر ضعيف الأساس، تهدمه اضعف هزة، ولا يصمد أمام البرهان الصحيح القوي، إلا صمود حبات البرد أمام الشمس الساطعة.

فهذا التحجر العقلي والتردد النفسي لا مبرر لها إلا الخمول والتقليد الأعمى فيجيبهم عليه السلام جواب المؤمن القوي المتحدي لهم ولأصنامهم، ولذلك ليضعف يقينهم بقدرتهم، وعجزهم أمام أي متحد، كما يعلن وبكل صراحة عداءه لها، ولا يخاف ولا يخشى أذاها.

قال سبحانه وتعالى يصف جواب إبراهيم عليه السلام الذي كحد السيف يدل على قوة إيمانه وشجاعته في الحق واستصغاره لتلك المعبودات واحتقارها، وعدم الخشية منها: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥- ٧٧].

ثم استثنى مما يعبد رب العالمين وهو استثناء منقطع و(إلا) هنا بمعنى سوى وذلك، لأنه الخالق الهادي، المطعم الساقي، الشافي من الأسقام، ذلك الذي يحي ويميت ميزانه العدل، يوم الحساب، غافر الذنب، قابل التوب. قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].

﴿أَطْمَعُ﴾ بمعنى أرجو ستر خطيئتي، وعدم فضحي أمام الملأ وتخصيص نفسه بهذه النعم العامة والخير الوفير، رغم أنها نعمة لجميع الأحياء في هذه الأرض ذلك حتى يثير سامعيه ضده في هذه المجادلة الحامية.

وهم في غاية الحماس لنصرة أصنامهم التي يكيل لها النقد والاحتقار. وكأنه ﷺ يقول لسامعيه: هل تقدم أصنامكم شيئاً من هذه النعم الضرورية للحياة ولا يستغني عنها حي، وان فقدت فالموت المحقق بل والدمار الشامل. ونسب هذه المنافع من الله لنفسه، وذلك ليتعظ قومه، ويتفكروا، لعلهم يهتدون للحياة ولا يستغني عنها حي، وإن فقدت فالموت المحقق بل والدمار الشامل، ونسب هذه المنافع من الله لنفسه، وذلك ليتعظ قومه ويتفكروا، لعلهم يهتدون للرازق الحقيقي.

- كما أننا نستشعر مقدار حبه الله، ربه وخلو ذهنه من أي معبود سواه.
- ورغم أدب المناظرة تلك فقد وجه القول للأصنام المكرمة المقدسة عند قومه وكأنه بلغة التحدي يقول: فلتفعل أصنامكم بي ما بدالها من أنواع الضرر والنقمة.

وذلك لأن كل عاقل مدرك يؤمن بضعفها، وقد صنعت بأيدي عبادها البشر، فأيديهم الصانعة أفضل من تلك المصنوعة وهم لغبائهم لها جند محضرون: يخدمونها، ولا تخدمهم، ويحرسونها ولا تحرسهم، فإن كانت هي كما تدعون آلهة فلتنتقم لنفسها مني وممن يضرها ويحتقرها ويذلها.

وعندما يرى نتيجة دعوته، وما قدمه من نصح وبينات وحجج تذيب الصخر الأصم، وتلين أمامها القلوب المتحجرة، ولكنها عن إزالة غشاوة الكفر عن عقول قومه قد عجزت، لا لضعف تلك الحجج القوية، والبراهين الواضحة، ولا لقوة بينات الخصم، بل لتمسكهم بما ورثوا من جهل وعناد الآباء الضالين، ثم اتباعهم شيطاناً مارداً قادهم للهاوية.

وجد في غبائهم ضالته المنشودة، فأغواهم، وزين لهم الكفر وحببه لقلوبهم، فاتبعوه فضلوا وأضلوا.

ويلجأ لله يدعوه لتحقيق بعض ما يتمناه لنفسه وذريته بعد هجرته قال سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٣ - ٨٩].

يطلب القوة والمساندة على حمل الرسالة، واتباع مسيرة الأنبياء الذين

سبقوه لنشر دين التوحيد ثم يكون قدوة ومفخرة لحسن ذكره، وجميل صنعه للأجيال المتعاقبة.

ثم يطلب الجنة دار النعيم الدائم، والسعادة الحقة والطمع هنا بمعنى اليقين في حق الله والرجاء في حق البشر، فلا يتكل أحدنا على عمله بل على لطف ورحمة الله به. ثم لم ينس صلة الأبوة وحقها؛ فدعها لأبيه الضال «وذلك قبل أن يخبره ربه أن أباه عدو لله وأنه من الهالكين». الخزي هنا هو ذل العقاب في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون والمال والبنون هما مطلب أهل الدنيا المفضل، فلا ينفعهم يوم القيامة.

وتأتي القاعدة في عدل الله يوم القيامة: فالقلب السليم الخالي من الشرك، والعمل الصالح هو المنقذ يومها.

هذا وقد شمل دعاؤه خير الدنيا والآخرة – عليه السلام– وتستمر الآيات البينات والعظات في وصف يوم القيامة والخصومة بين من يعبد الأصنام وأصنامهم وبين المُتبِع والمُتَبَع، وبين الشيطان وحزبه، وصفاً دقيقاً تقشعر منه الجلود التي تحس. ويتعظ منه كل عاقل مبصر، وتذرف من هوله دموع ذوي البصائر، فتتحرك ألسنتهم تلهث بالدعاء لمن بيده تفريج الكروب، غافر الذنب، قابل التوب.

تستغيث نفوس الأتقياء المؤمنين بالله من ذلك الموقف الذي لا ينفع فيه صرف ولا عدل قال سبحانه وتعالى في وصفهم يوم ذلك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

٤- البرهان العلمي على عجز الأصنام
هو تكسيرها وعجزها عن الدفاع عن نفسها

سبقت هذه الآيات المباركة بآيات تحقير للأصنام ولمن عبدها قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

وتبدأ هذه الآية الكريمة باستفهام استنكاري لبيان مقدار ضعف هذه الأصنام فلا هي تحمي نفسها، ولا من يعبدها من غضب الله، إن نزل عذابه سبحانه وتعالى.

ويمر سياق الآيات بذكر مختصر على تعاليم نزلت في كتاب التوراة الذي نزل على موسى وهارون، عليهما السلام، فنزول القرآن الكريم على رسول الله محمد، ﷺ، ليس بدعاً. وكان أهل الكتاب يفتخرون على غيرهم لنزول الكتب عليهم وهذا كان رأياً عاماً عند الناس وخاصة في جزيرة العرب، حيث يقطن بعض اليهود فالخطاب لقريش الذين يجلون ويقدرون أهل الكتاب وذلك لكتبهم.

وهنا يظهر التناقض في سلوك قريش فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام، باني الكعبة المشرفة – بأمر ربه – وجد قريش سدنة هذا البيت المكرم عبر العصور، يكسر أصنام قومه، ويحتقرها، ويرميه قومه في النار جزاء فعله هذا، وينقذه ربه من تلك النار كمعجزة للبشر، ثم يهجر عليه السلام أهله وبلاده بسبب هذا النوع من الشرك ذلك الذي تتمسك به قريش، وتفديه بالغالي والنفيس.

وتبدأ قصة إبراهيم، عليه السلام، بوعظ قومه وأبيه خاصة؛ حيث جعل عليه السلام الفطرة هي المقياس. وفي هذه القصة النموذج الرقي للدعاة في كل عصر يقتدي به الذين استنارت قلوبهم بنور الإيمان واليقين، وأوقفوا أنفسهم لخدمة الدين ونشره، مقتدين برسل الله، سائرين على نهجهم، مستنيرين بهديهم.

ويظهر إبراز كلمة الرشد هنا، رغم أن كل الأنبياء هم راشدون. ولكن تسلسل الهداية بالنسبة لإبراهيم عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم بدءاً بنفسه،

ثم بأبيه ثم بقومه. وقد قرن سبحانه وتعالى، الرشد بالهداية والعلم والاصطفاء، حيث قال: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وتبدأ المجادلة بين إبراهيم وأبيه وقومه باستفهام يفيد الإثارة والاستنكار: قال سبحانه وتعالى مخبراً عن سؤال إبراهيم لقومه عن معبودهم ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

وفي هذا السؤال هزة فكرية لكي يصحوا من غفوتهم، ويصغوا لرأيه فتستنير عقولهم، وتلين قلوبهم، فقد وعظهم مستنكراً عليهم إقامتهم على عبادة ما يصنعون من لعب وصور وتماثيل وأما قوله عليه السلام، ﴿...مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ...﴾ هو نوع من احتقار أصنامهم حيث أنه لم يقل ما هذه الأرباب أو الآلهة كما يؤمنون.

فكان جوابهم أنهم مقلدون لابائهم تكريما وتقديسا لأولئك الآباء، وثقة بآرائهم وبشرعهم وليسوا على استعداد لإعادة النظر فيما بناه وخطة من سبقهم حتى أصبح عادة من عادتهم وإرثاً تليداً مقدساً. قال سبحانه وتعالى، مبيناً جوابهم ورد رسول الله إبراهيم عليه السلام عليهم: ﴿ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنبياء: ٥٣ - ٥٤].

وقد فاجأهم بصراحته تلك بذلك الجواب الشجاع العنيف عن أغلى وأقدس وأعظم ما عندهم، فسخروا من جوابه الذي هزهم واستعظموه؛ فأرادوا تصغير رأيه بتحويل جوابه الصريح بنوع من الهزل والمزاح؛ وإلا كيف يتطاول على أوثان ترهبها الناس، وتخشى سطوتها، وتخر لها ساجدة معظمة، ألا يرهب انتقامها وأذاها؟ ومن يحميه منها وأين ذهبت هيبتها؟ قال سبحانه وتعالى، يخبرنا عن قولهم وعن جوابه، عليه السلام: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥ - ٥٦].

فأكد لهم جدية كلامه وصحة رأيه، ونبههم للمقياس الصحيح وهو الفطرة فخالق السماوات والأرض بما فيهن هو أحق بالتقديس والعبادة والتكريم والحمد والشكر.

ثم ذكر لهم وبكل جد واهتمام، أنه يشهد على هذا الرأي المقنع بأدلته، وحججه الدامغة الواضحة. أما هم فقد عدموا الحجة وذلك عندما حولوا أمر أصنامهم وتقديسها، وانحرافهم عن الفطرة إلى آبائهم بدون تمحيص ولا مجرد تفكير.

وأما قوله عليه السلام، ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فذلك لثقته وأيمانه بقوة حجته التي تتفق والعقل السليم، وتسير مع الفطرة الصافية التي فطر الناس عليها. فقد شاهد عليه السلام ببصيرته ما لم يشاهد بعينه ومن دقة المصنوع، وتناسب أجزائه، نؤمن بعظمة الصانع وقدرته. وبقوة إيمانه عليه السلام، بوحدانية الخالق احتقر واستصغر أصنام قومه، ووصل به التحدي أن أقسم على تكسيرها، وحدد الوقت زيادة في إصراره وقدرته على التنفيذ وذلك عندما يخلوا مكانها من الناس.

قال سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وهنا ينتقل بالدعوة لأخطر موقف، وأسمى برهان وأعظم بينة، وذلك بتمزيقه لستار الهيبة والخوف الذي ينتاب قومه عند إيذاء تلك الأصنام، ومع هذا يواجه بالأعراض.

وتصف هذه الآيات الكريمة مشهد تكسير تلك الأصنام، وكأننا شهود عيان على هذا الموقف، وذلك التحدي السافر، حيث يقول سبحانه وتعالى:﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٨ - ٦١].

وليتصور من يتصور من عبدة الأصنام وفي أقدس بقعة بيت الله الحرام، من قريش ماذا فعل جدهم عليه السلام بأصنام قومه فينظرون لها وقد كسرت وذلت

بعد عزة وتقدير، لم تسحقها صاعقة من السماء ولا زلزال من باطن الأرض بل بفأس إبراهيم الخليل وساعده القوي جعلها قطعاً مفتتة وفي لحظات تلك الأوثان التي شغلت عقول وأيدي المهرة من الصناع والفنانين. وقد ترك عليه السلام كبير تلك الأصنام سليما وقد علق الفأس بيده ليكون مجال المجادلة، وأساس العظة والحجة الواضحة، بضعف تلك المعبودة الحقيرة التي لم تدافع عن نفسها في اشد محنة تصادفها فكيف تدافع عمن يعبدها ؟

ونستنتج من عمله هذا عليه السلام، أنه لم يقم بما قام به إلا ليبين لقومه مقدار ما هم فيه من الجهل والضلال بتوجيه العبادة للمخلوق الضعيف الذي لا يستطيع دفع الأذى عن نفسه فكيف به يدفع عن غيره ؟

هو عليه السلام، يعرف أنهم سيصنعون غيرها تفوقها جمالاً ورونقاً، ودقة في الصنعة، وذلك لتخبطهم في مستنقع الضلال والجهل، رغم قوة حجته، ونور بيانه. ويحضرني ما حصل في أواخر القرن الماضي الميلادي من تحطيم وإذلال لأصنام زعماء الملاحدة التي كانت لها الصدارة في ميادين وساحات حواضر بلادهم. وكيف سحبت من عليائهم ورميت تحت أقدام المارة الذين أجبروا على تكريمها، وتقديسها، لتعبد بدل الرب الخالق بضع عقود من السنين العجاف هؤلاء الشعوب المغلوبون على أمرهم، الذين حُكموا بالحديد والنار مدة تزيد على ثلاثة أرباع القرن ورجوع تلك الشعوب المقهورة لأماكن العبادة وبيوت الله تلك التي هجرت أو حولت لخانات أو دمرت ودنست والله يمهل ولا يهمل والحق يعلو ولا يعلى عليه.

فما كان حكم وفساد هؤلاء الملاحدة الشيوعيين في أرض الله إلا فترة قصيرة من عمر الشعوب كما حصل في القديم لحكم قباذ الفارسي الذي نشط في تطبيق نظام الإباحية في بلاد فارس، إلى أن استطاع كسرى أنوشروان قلب نظام حكمه وارجع الحقوق لأهلها.

وعندما رجع قوم إبراهيم من عيدهم، وقد وجدوا آلهتهم قد كسرت أذهلتهم المفاجأة، وحركتهم الحمية، وأظلهم حب الانتقام، ونفخ في أنوفهم شيطان مارد. وليتهم تنبهوا لتلك العظة، فاعتبروا بما قام به إبراهيم عليه السلام بإثبات عجز تلك الأصنام أمام الحقيقة. ولكنهم اعتبروها آلهة، وأن مكسرها ظالم. إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، وبدأ البحث عن الجاني، مكسر الأصنام، فقال قائلهم "سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم"أي يتوعدهم بالأذى والتحقير قال الملأ منهم: أحضروه، وأجمعوا الناس ليتعظوا بما سيحصل له من عقوبة وتأديب.

وبدأ التحقيق معه عليه السلام أمام تلك الجموع الثائرة ولنتصور هذا الموقف: آلاف البشر يسندهم ملك جبار، متأله، وجيش مدجج بالسلاح، وشرط تنفذ أمر الحاكم بدون معارضة وسدنة حانقة ثائرة، تكاد تميز من الغيظ وإبراهيم عليه السلام بينهم وحيد تكاد تتخطفه أعين الحضور الغاضبة ولكنه ثابت الجنان متوازن الخطأ، قوي الإرادة، فعل ما فعل عن بصيرة وهدى من الله، ونعم السند، رب العالمين ونعم المجير.

قال سبحانه وتعالى، يصف قوة منطقه، عليه السلام، وقوة حجته وأسلوب الداعية المؤمن القوي، لا ترهبه الجموع، ولا شبا حراب الشرط، ولا أسنة الرماح المشرعة حتى ولا سيف ذلك الملك المتأله، الذي يقطر من دماء الأبرياء ولا خيال النطع يمتد أمامه: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٣] وبدأوا بالسؤال المتوقع فأجابهم الجواب الجاهز المخطط له، ذلك دفعه لما عمل وأشار إلى ذلك الصنم الذي اختاره لحمل أداة التكسير، وأتبع إشارته بقوله:

﴿.. فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾. هذه هي الحجة البليغة، والبينة الواضحة لمن استنار قلبه، وانقشعت سحب الضلال عن عقله فقال قائلهم عندما أضاء نور الحقيقة عقله ﴿.. إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فالمفروض أن ألهتكم هي التي تجيب وتكشف ما خفي، وتنتقم لهذا العمل المشين عندكم. ورغم وضوح الأمر، فقد احتجوا على إبراهيم، بما هو حجة عليهم وقد ساقهم عليه السلام بفطنته وهدي الله لتلك الحفرة، ليقولوا هذا القول ليكون البرهان الساطع. فكيف تعبدون من لا يدفع الأذى عن نفسه، ولا عن غيره؟؟!!.

وقد انطبق عليهم مثل هذه الآية المباركة حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤ - ٦٧].

«نكسوا» بمعنى رجعوا لجهلهم وغبائهم وعنادهم، وذلك بعد أن قدح نور الحقيقة في رؤوسهم، فاستنارت عقولهم، وإلا فهم يرجعون إلى مستنقع الجهل، يتفيؤون غيمة الظلام الدامس الذي اعتادوا العيش فيه، هم وآباؤهم. ثم نطق بكلمة توافق الموقف، وهي القبح لهم ولما يعبدون قالها بدون خوف ولا وجل.

وقد نقلتنا هذه الآية الكريمة لتصور ذلك المشهد، ونهاية تلك المجادلة المصيرية حيث ضاق صدر الحليم إبراهيم عليه السلام بسخف وضلال وجمود قومه، رغم وضوح البينة وما أتى به من برهان عملي بإظهار عجز أوثانهم وذلك لتكسير حاجز الوهم والخوف الذي ينتابهم عند تحقير تلك الأوثان، أو السخرية منها، أو الإعراض عن تقديسها.

حيث جعل من عمله هذا ومجادلته تلك هزة فكرية ولكنهم غافلون، صامدون لا يعقلون. ثم تتابع الأحداث قال سبحانه وتعالى يصف حكمهم، وما نفذوه من عقوبة على نبيهم الذي فتح لهم آفاق النور بفأسه تلك: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧١].

وتكون المعجزة الكبرى، حيث سحب رب العالمين الرحيم بعباده خاصية الحرق من نارهم، فكانت برداً وسلاماً على نبي الله إبراهيم عليه السلام. (سلاماً) في هذه الآية المباركة هو عدم الأذى والبرودة الزائدة. وأما الحكم عليه بالحرق فهذه عادة أهل السوط والتجبر في الأرض عند عجزهم عن بيان الحقيقة، وتغطية ضعفهم وفشلهم، تأخذهم العزة بالإثم، وذلك عندما تلجمهم الحقيقة البينة الظاهرة، وتبهتهم بنورها الساطع، تلك التي داسوها تحت أقدامهم فيكون سلاحهم لحكم الشعوب هو سحق النفوس، وكبت الأنفاس، والبطش بل والقتل بدون مبرر، حسب المزاج والهوى.

وذلك كما فعل فرعون المتأله بالسحرة المؤمنين عندما انتصر الحق بقيادة رسول الله موسى عليه السلام، وانهزم الباطل بقيادة فرعون، فآمن السحرة الذين جندهم فرعون، وأمام ذلك الجمع الغفير في يوم الزينة، يوم انتصر فيه الموحدون بمعجزتهم "عصا موسى" على باطل السحرة المشركين ومن كان سنده رب العالمين فلا يضل ولا يشقى.

فهذا رسول الله إبراهيم عليه السلام، كاد له رجال الحكم والسلطان برميه في النار، ولكن الله حماه فاضطر للهجرة مع زوجه سارة وابن أخيه لوط إلى البلاد المباركة، بلاد الشام.

وكان في هجرته هذه نجاته من كيد قومه الكافرين حيث اجتمع على أذاهم الحاكم والمحكوم، القريب والبعيد. وليس هناك تعليل لنار لم تحرق رغم أن طبيعتها الحرق إلا أنها معجزة وخارقة من الخوارق؛ ولا توضع تحت المجهر العلمي المحدود القوة؛ وذلك لربطها بالقدرة المطلقة الخاصة برب العالمين الذي يقول للشيء كن فيكون. فهذه الآيات الكريمة نقلتنا إلى مشهد فظيع، وتحد سافر فمن قائل حرقوه، ومن قائل انصروا آلتكم، وقد اختفت غيوم الرحمة، وصلة الرحم حتى الأبوة والقرابة والجيرة، فلا مغيث، ولا شفيع، إلا سند المؤمنين، رحمة الله التي أنقذته بمعجزة هزت قصور الظلمة، وزادتهم حيرة إلى حيرتهم، وعجزاً فوق عجزهم، وخسراناً مع خسرانهم، فلا ثقة في تلك الأصنام المعبودة التي ثبت عجزها أمام فأس إبراهيم عليه السلام ولا في سدنتها الذين وقفوا مبهوتين مضطربين بل ولا في أقوى سلطة في البلاد ذلك الملك المتأله وزبانيته الأشرار.

ومن فضل الله على إبراهيم أن آنسه بذرية جعل منها أنبياء في غربته، وجعل منهم أئمة يهدون – بأمر الله – ولأنهم مهتدون فقد حق لهم أن يهدوا الآخرين وتقتدي بهم الأمم عبر التاريخ.

ويعقوب عليه السلام نافلة لدعوة إبراهيم عليه السلام، أي زيادة في الخير والبركة التي وعد الله إبراهيم بها، فقد دعا أن يرزق ولد: فبشر أيضا" بولد وحفيد؛ وهذا كله من فضل الله القادر الرحيم، ونعمته التي لا حد لها، فهو الرازق الحافظ الهادي.

ومما بشر به سبحانه وتعالى، عبده إبراهيم، أن من هذه الذرية سيكون أئمة وصالحون، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣].

وقد أمر سبحانه وتعالى هؤلاء الأنبياء والأئمة من ذرية إبراهيم الخليل، عليه السلام، بفعل الخيرات، وإقامة الصلاة، تلك الصلة اليومية بين العبد وربه، والزكاة ليشترك المجتمع في تداول المال، ويشد بعضه بعضا"، والإيمان بالله،

والعمل بما أمر هي المنجية في الدنيا والآخرة، وهذه من رحمة الله بالبشر، حيث أرسل الرسل لتوضيح الصلة بين الخالق والمخلوق، والعابد والمعبود، وفتح كوى النور للسير على الخط المستقيم الذي رسمه رب العالمين لعباده حتى لا نضل فنشقى، وحتى نسير على طريق الصالحين المهديين المؤمنين المتقين.

هذا وقد أسدلت البشرية الستائر السوداء الكثيفة على منافذ نور السماء في هذا العصر المادي الذي تحكمت فيه القوانين الوضعية المتناقضة الظالمة هذا العصر الذي ساد فيه الوضيع، وانحط الرفيع، وتعثر فيه الرأي السديد، وتحكم الهوى، والنفس الأمارة بالسوء، في علاقات البشر، فعبدوا الدينار والدرهم. وقد جدف ربان سفينتهم عكس ريح الخير، فأوردهم دار الهلاك في الدنيا والآخرة فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وكتاب الله، القرآن الكريم الذي حفظه الله من التغيير والتبديل، طوال العصور، لا يزال غضاً نفهمه ونفقه ما فيه من خير وصلاح، ونور يهدي الحيارى والضالين، ولكن الشيطان وحزبه قد دانت لهم الأرض وازينت فرجع القوم إلى الجاهلية العمياء إلى أيام اليونان والرومان والعرب الجاهلية؛ يلعقون أنظمة أفسدت الأجداد، وضللت الأحفاد فالله هو المنقذ الحافظ والهادي إلى سواء السبيل.

٥- إبراهيم ﵇ جد قريش حطم الأصنام ونادي بتوحيد الله

سبقت هذه الآيات بنماذج من الفتن، ومن تحجر المجتمعات أمام دعوة التوحيد عبر العصور، مع ذكر ما لقيه الأنبياء من مقاومة. ففي رسالة نوح، ﵇ ومع ما بذله خلال عمره الطويل من جهد كبير مع قومه لكن الحصيلة كانت قليلة ثم ما لقيه رسول الله إبراهيم ﵇ من قومه حتى وصل بهم الحال أن رموه في النار المتأججة حتى أنقذه الله، وأمره بالهجرة. وهذا القصص ذكر في كتاب الله وأثناء تحجر مجتمع مكة أمام دعوة الإسلام تسلية للرسول محمد ﷺ واختباراً لصحابته الكرام.

قال سبحانه وتعالى فيمن يفتنون ويعذبون: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

وأثناء سرد قصة إبراهيم ﵇ مع قومه، تذكير على لسان رسول الله محمد ﷺ لقريش. التي تعتز بالنسب لرسول الله إبراهيم ﵇ باني الكعبة المشرفة وما فعله ﵇ بأصنام قومه.

فكيف بكم يا من تعتزون وتقتدون برسول الله إبراهيم ﵇ باني هذا البيت ومطهره؟ كيف بكم تقفون في صف المشركين عبده الأوثان وتكرمونها وتضعونها في ساحة البيت الحارم تلك الأصنام التي كسرها ﵇ بيده الطاهرة، وقاوم عبادتها، وضحى من أجل ذلك.

وذكر يا محمد قريشاً بما دعا إليه إبراهيم قومه، وما نصحهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦ - ١٧].

إن كنتم تعقلون وتميزون الخير من الشر والعاقل المميز يسلك الطريق الموصل للخير ولا يحيد عنه فاعبدوا الله، وطبقوا شرعه؛ لأن فيه الوقاية من عذاب الله في الدنيا والآخرة.

وأوثانكم هذه التي صنعتموها بأيديكم لا تملك لكم رزقاً، إنما الرازق هو الله فاعبدوه واشكروه على نعمائه "تخلقون" بمعنى تصنعون و﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ هو قولهم لما صنعوا من أوثان أنها آلهة تعبد أو شركاء لله في ملكه أو شفعاء عنده.

وتنكير كلمة ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ مرة وتعريفها مرة أخرى ذلك أن الأصنام لا تملك أي رزق، مهما صغر فالرازق الوحيد هو الله الواحد الأحد.

ثم يتحول الكلام إلى قريش فإن كانوا قد كذبوا محمداً فقد سبقتهم أمم في التكذيب، فعاقبهم الله وفي الآية تهديد ووعيد وتحذير لمصير المشركين يوم القيامة فإن أقمتم يا قريش على ما أنتم عليه من الشرك فمصيركم مصير من سبقكم من أمم الكفر وما بيد رسول الله ﷺ، إلا بلاغكم وتذكيركم ولا يضره من كفر.

كما يذكرهم ﷺ بالتفكر والرجوع للفطرة قال سبحانه وتعالى في هذا الأمر: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ١٨ - ٢٣].

والمطلوب الفكر في هذه المخلوقات كيف تبدأ حياتها ومعاشها وعلاقتها ثم الموت الذي لا مفر منه لكل حي. وتموت وقد خلف بعضها نسلاً عمر

الأرض مثلما عمرها الآباء كل هذا بتقدير الله وقضائه، سبحانه وتعالى ونفهم من هذا أن القادر على الخلق بدءاً على مر العصور قادر على إرجاع الحياة بعد الموت، وذلك للحساب والجزاء، ثم الجنة أو النار ولا ثالث لهما.

وفاعل "بدأ" ضمير يرجع لله، سبحانه وتعالى وظهور اسم الجلاله سبحانه وتعالى، أنه ينشئ النشأة الآخرة وذلك بعد الفناء، فيه بلاغة النص والتركيب ما فيه.

والمثال ظاهر في كل وقت على قدرته، سبحانه وتعالى فالنبات يبدأ ضعيفاً يشق التراب ببطء، ثم يكبر ساقه لأعلى، وجذره لأسفل بهدي الله له، ثم يهيج، ويصفر ويذبل بعد خضرة ونشاط، ثم تذروه الرياح، وتنتشر بذوره في حالة سكون وبيات، وذلك بأمر الله.

ثم ترجع الكرة مرة بعد مرة على مر الفصول بذور من نبات، ونبات من بذور.

وحياة الحيوان: حيوان من بيضة ملقحة، وبيضة من حيوان ومثله الإنسان.

تدعونا هذه الآيات البينات للفكر وإمعان النظر فيما حولنا، والاستنارة والسير الذي يدعو له، سبحانه وتعالى هو سير البصير المتفكر المستنير لا سير أعمى البصر والبصيرة وإلى الله المنقلب، فيعذب ويرحم ويحاسب، ويعاقب، لا يخرج أمر عن مشيئته.

والحديث عن النشأة الآخرة، وكيفيتها هو من علم الغيب نؤمن به كما ورد، ولا نقيسه على ما نحن فيه ولا على ما يحيط بنا من المحسوسات الملموسات. ومن الخطورة قياس الأمور والمغيبات والخلق والفناء بعين الإنسان القاصرة، لأن مقياس الخالق الذي يقول للشيء كن فيكون، يختلف عن مقياس المخلوق. ومن الخطورة خلط تلك المقاييس أو البحث فيما وراء المحسوس فنقتصر على ما علمنا به ربنا عن طريق رسله، عليهم السلام.

ثم يذكر سبحانه وتعالى قدرته المطلقة في حكم السماء والأرض، وهو المحيط بالجميع فلا ناصر لنا من دونه ولا ملجأ منه إلا إليه فيجب علينا أن نخلص العبادة له وحده.

وأما الذين أنكروا هذه الأدلة، والحجج البينة الواضحة، على قدرته المطلقة سبحانه وتعالى، فقد يئسوا من رحمته، ولهم عذاب أليم وهذا جزاؤهم لعنادهم، وإتباعهم الهوى والشيطان.

قال سبحانه وتعالى، في هذا الموقف: ﴿...إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وأما المؤمن فيكون راجياً لله، خائفاً يعمل الخير، ويطلب من الله القبول.

فهذه الآيات قد اعترضت بين طرفي قصة إبراهيم عليه السلام وذلك لتكون قصة إبراهيم عظة تتصل مباشرة بالدعوة الإسلامية في الفترة المكية من نزول القرآن الكريم، حيث الصلف، والجبروت، والتكبر عند الملأ من قريش في عنفوانه وشموخه، وغيمة الظلم والعناد والكفر تخيم على أرض الحرم الشريف، ودعاة الإسلام من صحابة رسول الله، ﷺ يعذبون في هجير بل ويقتلون حتى هجر بعضهم أرض الحرم الشريف إلى الحبشة ثم يثرب. فذكرت قصة إبراهيم عليه السلام قريش وقدوتهم الذي يفضلون باني الكعبة المشرفة محج العرب، ومهوى قلوبهم والمغناطيس الذي يجذبهم للعمرة والحج السنوي.

وقد بينت هذه الآيات التناقض عند قريش في عبادتها للأصنام، واحترامها لذكرى مكسر الأصنام الداعي لتوحيد الله.

فهذه الآيات مسلاة للرسول محمد، ﷺ، ولصحابته الأجلاء، ومتنفس لهم وتقوية على حمل دعوة الإسلام منتظرين وعد الله بالنصر، وقد نصرهم، وثبت أقدامهم.

وبينة واضحة، وحجة قوية، تدين قريشاً التي تعبد أصناماً صنعتها – وهي عديمة النفع – لعلها تهتدي بهدي الله خاصة وهي سدنة هذا البيت المكرم المطلوب من الله الذي أمر بإقامته والحج إليه أن يكون طاهراً من الشرك والأدناس.

قال سبحانه وتعالى مخبراً رسوله الكريم عما حصل لإبراهيم عليه السلام وما قاله بعد نجاته من النار:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٤ - ٢٥].

ففي هذه الآية تحديد جواب قوم إبراهيم بشكل سافر، لا مدارة فيه ولا غموض وذلك بعد كل تلك الحجج والبراهين والسيئات الواضحات أن حكموا عليه – شبه إجماع – بالقتل أو الحرق – وهو أنكى أنواع القتل – فأنجاه الله وجعل نجاته آية لمن استنار قلبه وآمن بقدرة الله الواحد الأحد، حيث قال لهم عليه السلام لقد عزكم حبكم لهذه الأوثان، واجتماع رأيكم على نصرها، ويوم القيامة تتحول كل خلة عداوة على أهلها إلا خلة المتقين حيث يحتج التابعون على المتبوعين، ويعلن كل خصمه، ولن يفيدكم العتاب، ولا التبرؤ، ولا الملاعنة.

وقد جمعكم حب هذه الأصنام في الدنيا وهي رابطة واهية، قال سبحانه وتعالى يصف هذه الروابط الضعيفة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ... ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال أيضاً: ﴿ .. ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤٣].

ودليل الملاعنة بينهم يوم القيامة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢].

وقال سبحانه وتعالى في وصف علاقة الناس مع بعض: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزُّخرُف: ٦٧].

ثم تبين الآية هذا التوضيح والعظة أن مصير المشركين ومأواهم، يوم القيامة جميعهم النار، ولا ناصر لهم ولا شفيع يطاع.

وهجر مع لوط بلاده وأهله عليه السلام إلى البلاد المباركة، بلاد الشام الحبيبة، موطن الصالحين والدعاة وبعض الأنبياء، بلاد الرباط والمرابطين الأتقياء، بلاد الإسراء والمعراج، أكناف بيت المقدس، قبلة المسلمين الأولى، بلاد المسجد الأقصى المبارك، حيث تشد إليه الرحال.

قال سبحانه وتعالى يذكر تلك الهجرة، وما أنعمه على عبده ورسوله إبراهيم من ذرية حدد فيها الأنبياء والرسل إلى يوم القيامة عليهم نزلت الكتب التي أنارت أقطار الأرض المعمورة وقد شملت هذه النعم على إبراهيم خير الدنيا والآخرة.

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٦ - ٢٧].

وقولــه ســبحانه وتعــالى: ﴿وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ...﴾ [العنكبوت: ٢٧].

ولم يقل سبحانه وتعالى، "في ذريتهم أو ذريتهما" لتدخل ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام تحت ظل حق الإمامة وقد حدث ذلك برسالة محمد ﷺ، وهو من ذرية إسماعيل، عليهما السلام. ثم يتحول الخطاب لدعوة لوط، عليه السلام، قومه إلى ترك الفاحشة وتخويفهم عذاب الله، لمن لم يتب منهم، ويرجع للفطرة والتقوى، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقد نصره الله عليهم بتدمير قراهم جزاءاً وفاقاً لارتكابهم الفاحشة وفسادهم المعروف.

ثم ترجع الآيات فتذكر مجادلة إبراهيم عليه السلام للملائكة المرسلين لتدمير قرى قوم لوط يجادل لدفع الأذى عن لوط وأهل بيته، فطمأنته الملائكة على نجاة البيت المؤمن ما عدا زوجه فإنها من الغابرين الهالكين.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١ - ٣٢].

وفـي هذه الآيـة تـذكير المسلمين بقولـه سبحانه وتعـالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨].

فلا يغني الابن إبراهيم عليه السلام، عن والده آزر المشرك ولا الوالد نوح، عليه السلام، عن ابنه الكافر ولا الزوج لوط عليه السلام عن زوجه الكافرة، كما لم تغن آسيا زوج فرعون عن زوجها الكافر. فلا رابطة منجية يوم القيامة إلا رابطة الدين

الصحيح رابطة المؤمنين الموحدين.

وتفيد هذه الآيات البينات العموم والشمول فلم توضع لعصر دون عصر ولا لأرض دون أرض، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٦- الذبيح هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وهو جد العرب

تقدم قصة إبراهيم عليه السلام، هذا الصراع بين الكفر والإيمان وفتح صفحة يمتد تاريخها منذ نوح عليه السلام، وقد وصف في هذه السورة المباركة، سبحانه وتعالى المشركين بقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩ - ٧٠] وكلمة ﴿يُهْرَعُونَ﴾ تبين سرعة تمسكهم بالشرك بدون تفكير، ولا ترو، ولا تمحيص، كالأنعام ترد مسرعة مورد الماء، فلا تلفت يمنه ولا يسرة، حتى لو كان حتفها في أنياب ومخالب سباع الأرض الكامنة – عادة – حول ذلك المورد تيسر تلك الأنعام آخرها على أثر أولها وجواب المشركين متشابه، منذ قوم نوح، عليه السلام إلى قريش، كما عبد آبائهم يعبدون، وهم في ضلالهم سامدون.

فتذكير قريش بقصة جدهم إبراهيم عليه السلام ما هو إلا للعظة، والسير على نهجه، خاصة وأن قصة الأضاحي مرتبطة بجدهم إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، وقد وردت في هذه الآيات شبه كاملة وخاصة استجابته عليه السلام لأمر ربه بذبح ابنه وفي أرض الحرم من منى وفيها ذكرى استجابة جد العرب إسماعيل عليه السلام لأمر ربه وطاعته المطلقة لذلك الأمر وإعلانه المشهور بأنه سيكون من الصابرين أمام تنفيذ هذا البلاء المبين.

والكلام موجه أيضاً لمن أدمت سياط جبابرة قريش جلودهم من صحابة رسول الله ﷺ ومن هاجر منهم، وتحمل مشقة تلك الهجرة فيذكرهم رب العزة بهجرة جدهم إبراهيم الخليل عليه السلام وما أورثته تلك الهجرة من ذكر طيب، وتقدير نالهما صحابة رسول الله محمد ﷺ عندما ساروا على نفس الدرب، طريق المتقين الصالحين، دعاة دين التوحيد في الأرض فرفعوا مآذن يذكر فيها اسم الله في أوقات الصلوات الخمس، فلا تمر دقيقة إلا ويسمع فيها "الله أكبر".

وقبورهم منثورة، تعبق بنسيم الشهادة وتبنى المساجد تخليداً لذكرهم الطيب، وتضحيتهم المشهورة، عبر التاريخ تتناقل الأجيال سيرتهم، بكل فخر وحب وتقدير، وإذا أحب الله عبداً حببه إلى الناس.

ويربط سبحانه وتعالى، إبراهيم عليه السلام بكوكبة الموحدين حيث أنه لم يلتفت

لمغريات دعوة الشرك، ولم يحكم هوى النفس، ولم تشغله الدنيا بزخرفها، فصفا قلبه، وزاد يقينه، فأمن بالله رباً خالقاً مدبراً للكون، ويكفيه فخراً أنه كان أمة وحده، وانه قاوم الشرك والطغيان بكل شجاعة وقوة.

هذا وسؤاله عليه السلام لأبيه وقومه عما يعبدون، وهو يعلم ذلك فيه الاستنكار والتوبيخ لهم، لجحودهم أمام دعوة الحق، وتمسكهم بالباطل والشرك. وتصدير الاية بكلمة "إفكا" بعد الاستفهام، والإفك هو أسوأ الكذب فيه تنبيه لهم عما سيقول لهم، وما سيدعوهم إليه، ومن وجوب ترك عبادة ما لا ينفعهم، ولا يرزقهم، ولا يحميهم من غائلات الزمان بل التوجه لعبادة من يملك نواصيهم، ومن سيحاسب عن أعمالهم يوم القيامة ذلك الذي خلقهم ورزقهم ثم عبدوا غيره.

فما هذا الظن بالله المنعم الرازق الخالق القدير ؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٣ - ٨٧].

وكلمة ﴿تُرِيدُونَ﴾ تختارون و ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ذكرة تفيد العموم فقلبه، عليه السلام، سليم من كل الآفات ومنه أعظم آفة وهي الشرك فهو عليه السلام، مخلص لله في التوحيد.

كان قومه عليه السلام، يربطون بين حركة بروج السماء ونجومها وبين الأوبئة والأمراض والمناخ وعلم الحساب، فاستغل عليه السلام، اهتمامهم الزائد بهذا الأمر، وما تبعه من عادات وخرافات واعتذر عن الذهاب معهم لحضور عيدهم العام المعروف حيث بين لهم أن من عادته عند طلوع نجم عرفهم به أن يصاب بمرض.

وقيل أنه استعمل التورية لينفرد في بيت الأصنام، وقال البعض أن السقم الذي عناه هو همه من كفر أبيه وقومه، وحرصه على نجاتهم من العذاب.

قال سبحانه وتعالى يخبر عن عذره هذا: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ [الصافات: ٨٨ - ٩٠].

ومن ملاحظة اعتذاره عن الذهاب والاشتراك مع أهله في عيدهم، كان سدنة هذه الأصنام كانت تتناوب حراستها، ليل نهار، مما دعا إبراهيم عليه السلام، أن يعتذر بالسقم ليخلو في بيت تلك الأصنام لذهابهم جميعاً في عيدهم هذا، كما نلاحظ أن بيت تلك الأصنام كان مفتوحاً للجميع وأمانه الوحيد هو خوف القوم من تلك الأصنام كما يتوهمون.

وكان عليه السلام موفقاً في اختيار ذلك اليوم لاجتماع الناس لينتشر خبر عجز تلك الأصنام للجميع، وتتناقله الركباب فلا يستطيع الملأ والسدنة إخفاءه عن باقي الناس، كما هي عادة الحكام في سياستهم للشعوب الجاهلة المظلومة المغلوبة على أمرها فالتجهيل، وإخفاء الحقائق، والظهور بالقوة والبطش، ساعة الضعف والهزيمة، هي من أساليبهم.

ثم تنقلنا هذه الآيات المباركة لبيت تلك الأصنام وما يقال لها قبل التكسير، ومشهد تكسيرها وكأننا نراقب ذلك المشهد بالسمع والبصر قال سبحانه وتعالى:

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩١ - ٩٣].

فقد حصلت الخلوة التي خطط لها، وكان أمام تلك الأصنام بعض الطعام، وضع للتبرك، فأخذ يستهزئ بها وهو يعلم أنها لا تنطق، ولا تضر ولا تنفع. حيث قال مخاطباً لها: ألا تأكلون ؟ مالكم. لا تنطقون؟ فأخذ في تكسيرها، وبكل قوته ثم علق الفأس في عنق كبيرها، ليحتج به.

وكلمة "اليمين" تعني القوة والعدل وهي عند المسلمين من دون الأمم مقدمة على اليد الشمال. وعند رجوعهم ومشاهدتهم لما حصل لأصنامهم تساءلوا عن الفاعل، فاتهموا إبراهيم عليه السلام، لأنه قد هدد بتكسيرها قبل ذلك قال سبحانه وتعالى يصف ذهابهم لإبراهيم عليه السلام، بصفتهم المتهم الأول: ﴿ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴾
[الصافات: ٩٤]، فهم مسرعون غاضبون يريدون الانتقام والثأر لأصنامهم المكسرة والزفيف هو ركض النعامة، ثم يخبرنا علام الغيوب، سبحانه وتعالى، كيف اعترف إبراهيم عليه السلام بما فعل، ولكن بأسلوب الدعاية الذي يشير إلى الطريق الأعوج عند إشارته إلى الطريق المستقيم.

فقد بين لهم انحراف عن الحق باتخاذهم هذه الأصنام التي صنعت بأيدهم

آلهة من دون الله ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥ - ٩٦].

وهذه العظة القيمة موجهة إلى قريش التي كانت متمسكة بعبادة الأصنام، وتقديسها، وتجلها وتزين بها ساحات البيت الحرام، في الوقت الذي فيه تعتز بباني الكعبة المشرفة، جدها وتدعي انها تدين بدينه، وتسير على هديه، ففضحت هذه الآيات الحكيمة عقيدتهم وبينت فسادها، وأن إبراهيم عليه السلام، أمر بتطهير بيت الله هذا من عبادة الأصنام، لأنها قد أضلت الخلق، وألهتهم عن التفكير في من يجب أن تتوجه العبادة اليه. ولم تتعظ غالبية قريش بهذا القصص الحجة عليهم إلى أن جاء فتح مكة المكرمة فكسرها رسول الله، ﷺ وهو يتلو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] .

وأمام تلك الجموع الثائرة التي ساقها الشيطان بخيله ورجله صدر الحكم على رسول الله إبراهيم عليه السلام بالقتل رمياً في النار، ولكن الله أذل أعداءه وجعل تلك النار برداً وسلاماً عليه بسحب خاصية الحرق منها وأمام الجمع المحتشد كمعجزة لمن استنار قلبه وقدح نور الحقيقة في رأسه، ولكن قومه قد انطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦ - ٧].

قال سبحانه وتعالى يخبرنا عن كيدهم وعن نصرته لإبراهيم ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧ - ٩٨] ﴿ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أي المغلبين. وكيدهم هو رميه في النار المتوهجة، وهذا ديدن الحكام والملوك الظلمة، وأهل السلطان والقوة، عندما تعجزهم الحجة، لتسكيت الشعوب المظلومة، يلجأ ون إلى كتم الأنفاس، وقتل النفوس، وإيجاد الرعب والفتن، والسجن والتعذيب، والنفي والطرد كل هذا لإغلاق كوى النور، ولتحطيم إرادة الشعوب وتخويفها، ليسهل حكمها، واستغلالها، وإذلالها.

وقد ذكرت الآية الكريمة، كيف أنهم بنوا لحرقه بناية ليطيقوا الاقتراب من تلك النار المشتعلة كل هذا الجبروت والظلم لترهيب الناس، وبيان قوة السلطان وبطشه.

ولكن الله سند المؤمنون المجاهدين الناشرين لدينه الحق، وقد حول المحنة إلى منحة حيث أنجاه من مكرهم بمعجزة تناقلتها الركبان، وسطرها التاريخ.

وأعز رب العالمين البلاد المباركة بهجرته عليه السلام حتى وصل الخير جبال فاران في بلد الحجاز فبنى – بأمر ربه – ومساعدة ابنه إسماعيل عليهما السلام المسجد الحرام ثم له شرف النداء بالحج اليه – بأمر ربه – ثم خاتمة الرسالات تنزل على محمد ﷺ وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وذلك من أرض الحرام الشريف ومن الذروة من قريش.

قال سبحانه وتعالى يصف هجرة إبراهيم، عليه السلام وتوكله على الله، وتفويض، أمره اليه ليهديه سواء السبيل، وليهب له ما يؤنسه في هجرته وغربته ذرية صالحة تقود أهل الأرض للصلاح والتوحيد والتقوى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٩٩ - ١٠١].

واستجاب سبحانه وتعالى، دعاء عبده التقي المخلص، فوهب له ذرية صالحة تتوارث الدعوة لدين التوحيد والمحافظة عليه. كانت البشرى الأولى له، عليه السلام، تتعلق بإسماعيل الحليم عليه السلام والحلم من أفضل الصفات، حيث قد وصف بها إبراهيم عليه السلام قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] .

ويبتلى عليه السلام بأعظم وأشد بلاء يحدث للبشر وتنقلنا الآيات التالية لحدث فظيع عظيم، تهتز منه الجبال الراسية والقلوب الثابتة حيث قال سبحانه وتعالى ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٢- ١٠٦].

ولما أصبح صاحب البشرى الأولى لإبراهيم عليه السلام في ريعان شبابه، في سن سيساعده فيه أباه المتشوق لرؤية خلف له حليم، قوي صابر، موحد أوحى لهذا الأب في منامه بذبح ابنه هذا.

ويستجيب عليه السلام لهذا الأمر العظيم ويكشف لابنه إسماعيل الذي أطاع وأجاب بموافقة وبمعونة الله سيصبر على هذا البلاء العظيم وذلك استجابة لمن خلق الخلق الرب الحكيم.

الذبح – ولا شك – هو أبشع أنواع الموت كيف والذابح هو الأب وليس أي أب، بل هو إبراهيم الحليم، الذي أمضى أياماً وسنوات يدعو الله أن يهدي أباه، فكيف بابنه الذي أيضا أمضى الليالي والسنين يدعو ربه أن يرزقه ولداً صالحاً يخلفه في نشر دين الله، والأمر وحي من الله، ولا تردد عند رسل الله في تنفيذ أمره، سبحانه وتعالى. وفي هذا الامتحان يظهر لنا أفظع وأعظم ما يطيع به العابد أمر المعبود بدون توان ولا مجادلة.

وقد نقلتنا هذه الآيات المباركة لمشاهدة التهيئة لهذا الذبح، وطريقة الذبح، والصبر في أعلى مراتبه، والطاعة في اسمي معانيها، وتنفيذ أمر الله بدون تردد ولا تأجيل أو مجادلة كما يحصل عند بعض الناس عندما يقف حائراً أمام أمر من أوامر الدين أو القيام بواجب من واجبات الشريعة.

مع ملاحظة ما صورته الآيات السالفة من شوق ورغبة إبراهيم المهاجر لذرية يستأنس بها في غربته وهجرته، ثم يؤمر بذبح هذا الأنيس المبشر به من الله؟ "الله اكبر» ما اسمي واصبر أنبياء الله وأولياءه فمن هنا نالوا الدرجات العلا.

فبعد أن جبر خاطره وتمت فرحته بهذا الابن الذي وصل أجمل وأفتن سنين عمره، يؤمر بهذا الأمر الفظيع ؟

نعم هكذا طاعة المحسنين الأتقياء الصالحين وإرادة الله فوق كل إرادة فهذا محمد صلى الله عليه وسلم، حرم الأبناء في سن الرجولة رغم وجودهم أطفالاً.

ثم ملاحظة قوة إيمان هذا الابن برسالة أبيه النبي الرسول، وقوة إيمانه بالله، ووجوب طاعته مهما عظمت وأدبه عند تلقيه الأمر العظيم الذي ترتعد منه الفرائص، وتضطرب أمامه الإرادة، وتتجمد الكلمات من شدة روعته، إنه الأمر بذبحه، فيجيب وبكل رباطه جأش أفعل ما تؤمر.

ثم يجعل صبره على هذا البلاء بمشيئة الله ومعونته، لا بشجاعته ورباطة جأشه، ولا بحماسته وقوة إرادته. ثم استمرار هذا الثبات أثناء التنفيذ "وتله

للجبين" فلم يتراجع أيهما أو يتردد أمام موقف يشيب له رأس الرضيع.

وليس هناك أي دافع لهما للتنفيذ غير طاعة مالك الملك، خالق الإنسان والكون والحياة.

يكلم، عليه السلام، ابنه الغالي الأمل بهذا الأمر الإلهي بكل هدوء واطمئنان، وكأنهم يريدون فتح باب جنة، فيها الخير الوفير، والنعم السابغة، فيها ما يسر النظر وتطمئن به النفس وما ذلك إلا لقوة إيمانهما، عليهما السلام بأن الأمر من الله وهو سبحانه وتعالى، أرحم بعبده من أم بولدها وأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأن عظم وسنام هذه العبادة هو بذل الجهد لإطاعة الله.

وكان جزاء هذه الطاعة أن فداه ربه يذبح كبش عظيم وعظم هذا الكبش ليس في شخصه، ولكن فيما سببه من تيسير على المؤمنين الصابرين الأتقياء.

وإنقاذ إسماعيل النبي الذبيح عليه السلام من محنة وبلاء قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٧ – ١١١].

وترك الذكر الحسن لإبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، عبر تاريخ الرسل والأنبياء حلقة الاتصال بين الرب الخالق الحكيم وبين أهل الأرض المتعطشين لرضا الله، المستسلمين لأوامره ونواهيه سبحانه وتعالى.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾وهذا أعظم تكريم واطمئنان له من ربه، فهو من المؤمنين المحسنين فلا ينال هذه المنزلة إلا لما قدم وضحى، وآمن وعمل الصالحات. "وفديناه" أي أمره أن يفدي الكبش بدل ابنه لطفاً ورحمة وشفقة على بني آدم فهو عليه السلام قدوة المؤمنين الطائعين الأتقياء الصابرين. ومما يجب ذكره أن إبراهيم عليه السلام، قد شمر واجتهد مع ابنه للذبح ولكن السكين قد امتنعت – بأمر الله – عن الذبح، فكأنه باشر الذبح مطيعاً مستجيباً لأمر الله وصدق الرؤيا، ولكن لطف الله به وبابيه وبالمؤمنين جميعاً، ذبح ذلك الكبش فداءاً لإسماعيل عليه السلام، وتيسيراً على البشر. ونحن المسلمين، نؤمر بما هو أخف وأيسر كركعات الصلاة وصيام النهار، ومع هذا نستثقل هذا الأمر رغم إيماننا بالله وبرسله وبكتبه فنقول: اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة، واهدينا لما فيه خيرنا، ولا تجعل حملنا لكتابك الذي ينير لنا الطريق كالحمار يحمل أسفاراً بل اشرح صدورنا ونورها بنور الإيمان وأهدنا الصراط المستقيم،

صراط الذين أنعمت عليهم.

وتأتي البشرى الثانية من كرم الله لإبراهيم وزوجه سارة بمعجزة ميلاد طفل من أبوين شيخين قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات: ١١٢ - ١١٣].

وبارك لإبراهيم وإسحاق في ذريتهما بالكثرة ومن المغيبات التي ذكرت في هذه الآية الكريمة أن من هذه الذرية سيكون محسن وظالم ظاهر الظلم وهذه بشرى لأحفاد الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام.

ومقارنة بين هجرته عليه السلام وهجرة رسول الله محمد ﷺ وصحابته الكرام إلى يثرب، أن رسول الله محمد ﷺ هاجر طالباً النصرة لنشر دين الله وإقامة دولة الخلافة، لتحكم بشرع الله.

وقد كان أما إبراهيم عليه السلام فقد اعتمد في هجرته على ذرية تخلفه، كلما مات نبي يخلفه نبي إلى أن ختمت النبوة برسالة الإسلام، وجاء دور خلفاء المسلمين ليطبقوا شرع الله في المعمورة وقد كان ونطلب من الله المساعدة والعون لاستئناف هذا الدور، وإرجاع حكم الإسلام وهذا يدل على عدم تأثير الأصل والنسب في السلوك بل الأمر يرجع لهداية الله والإيمان والعمل فكم من أبناء عصاه مفسدين في الأرض من نسل صالحين ومؤمنين أتقياء.

قال سبحانه وتعالى عندما دعا إبراهيم عليه السلام لذريته بالإمامة: ﴿...قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] فليس للظالم عهد عند الله.

هذا ومن الأدلة على أن الذبيح في هذا القصص هو نبي الله إسماعيل عليه السلام وليس نبي الله إسحاق عليه السلام رغم عدم ذكر الآيات لاسم الذبيح بصورة ظاهرة قاطعة – قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢] فكيف يؤمر بذبحه وقبل أن يكون قد أرسل إليه كنبي، وجاءت هذه الآية بعد ذكر قصة الذبيح مباشرة – وقوله سبحانه وتعالى: فكيف يؤمر بذبحه وقبل أن يتزوج وينجب يعقوب حفيداً لإبراهيم عليه السلام وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

ثم عدم ذكر زوجه ومراسم الأضاحي السنوية بالأنعام في منى من ارض الحرم الشريف بمكة المكرمة، وهي تخليد لقصة الذبح والذبيح.

ونبي الله إسحاق لم يكن في مكة يوماً، بل ساكن مكة منذ الصغر هو إسماعيل عليه السلام وهو الذي بني مع أبيه الكعبة المشرفة في ارض الحرم. وقد روي أن قرني الكبش المضحى به كانت معلقة بداخل الكعبة حتى حرقت الكعبة بما فيها فيما بعد.

وكلمت من "ذريتها" في الآية الكريمة تعني إسحاق وإبراهيم عليهما السلام فمن تلك الذرية كما أخبر رب العالمين محسن وظالم والذبح كان قبل وجود ذرية لإسحاق عليه السلام كما تذكر الآيات الكريمة.

ثم ذكر إسماعيل انه من الصابرين يوافق قصة الذبح وأي صبر أعظم واشد من صبره؟ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]. وقوله سبحانه وتعالى في إسماعيل عليه السلام: ﴿...إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ...﴾ [مريم: ٥٤].

وذلك انه وعد أباه بالصبر إمام تلك المحنة والبلاء، ونفذ ذلك أمام أعظم واشد موقف.

قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم "أنا ابن الذبيحين وهما، إسماعيل عليه السلام وعبد الله " أخرجه الحاكم والثعلبي.

قال ابن كثير في تفسيره: "وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى يقال عن بعض الصحابة، وليس في ذلك كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أخبار أهل الكتاب، وأخذ مسلماً من غير حجة وكتاب الله، شاهد ومرشد إلى انه إسماعيل فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح وقال بعد ذلك ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وتستمر الآيات التالية: تذكر نبذا عن أنبياء الله عظة لمن يتعظ وبشرى للرسول محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته الإجلاء ومن تبعهم بأن النصر من عند الله والهادي هو الله، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول بعث كباقي الرسل وهو خاتمهم، وهذا ما كان فمنذ بضعة عشر قرناً لم يبعث غيره صلى الله عليه وسلم.

٧- آداب إبراهيم عليه السلام مع ضيوفه

الرزق بيد الله، حيث قال - سبحانه وتعالى-: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

واستمرت الآيات في ذكر الكرم، وكان كرم إبراهيم - عليه السلام- المهاجر التارك لماله وأهله، نموذجاً نحتذي به، ونسير على سنته في الأخذ بأدب الضيافة، وتكريم الضيف. وهذه الأخلاق ليست من روابط المجتمع فحسب، بل هي من روابط الإنسانية جمعاء.

فالضيف - أياً كان- يكرم، ولا يمن عليه بما يقدم له، وبما يخدم، ومن العيب تذكيره آو الافتخار أو معاتبته بما قدم إليه. وفي المقابل لا يجوز لهذا الضيف أن يذم أو ينتقد أو يتكبر على شيء قدم له. ويكفي رسول الله إبراهيم - عليه السلام- ذكراً حسناً وفخراً، ان ذكر كرمه واستقباله ملائكة السماء المقربين في القرآن الكريم. وقد ورث العرب من جدهم كرم الضيافة، فتمسكوا بها، واعتبرها شعراؤهم وحكماؤهم والملأ منهم سنام مكارم الأخلاق، فاختاروا بهذه العادة وكان من شروط صلح رجال الفتح الإسلامي على بلاد العجم حين فتحها تقديم الضيافة لمدة ثلاثة أيام لمن يمر بهم من الغرباء عرباً أو عجماً.

وكان رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم- أكرم العرب، وخاصة في شهر رمضان المبارك، وقد أطلق سراح سفانة بنت حاتم الطائي يوم أسرها إكراماً لكرم أبيها المشهور، رغم أن أباها من أهل الفترة. ومنذ الفتح الإسلامي قام المسلمون في فلسطين من ارض الشام بتخليد ذكر كرم إبراهيم- عليه السلام- بتقديم الطعام لمن يمر بقبره الشريف في مدينة الخليل، حتى أثناء حكم الصليبيين لتلك المدينة، وأثناء احتلال اليهود لها في هذه الأيام.

قال الله - سبحانه وتعالى- مخاطباً رسوله، محمداً - صلى الله عليه وسلم- أن يحدث الناس بأمر كانوا يجهلونه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤].

وهذا الأمر يبين كيف كان إكرامه واحترامه وأدبه مع ضيوفه المنكرين، وكلمة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ تفيد هنا التضخيم للحديث والتنبيه للمستمع ليصغي باهتمام وذلك لأهمية الخبر في تنظيم علاقة البشر وحثهم على إكرام الضيف.

تحدثنا هذه الآيات الكريمة أدب الملائكة رغم ما هم فيه عظمة وقوة من

خالق الخلق بطرحهم السلام بكل تواضع على إبراهيم، عليه السلام ثم رده عليهم وأما قوله عليه السلام، ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ فقد يكون هناك مهلة زمنية، أو أنه قالها عندما رأى أيديهم لا تمتد إلى طعامه، خاصة وانه غريب في تلك الديار.

وهذا التعريف والاستئناس لا يخالف إكرام الضيف، كسؤاله عن البلاد التي قدموا منها، وحال أهلها. ثم تستمر الآيات تبين لنا ما قام به عليه السلام، في خدمة ضيوفه هؤلاء حيث جهز لهم أفضل ما عنده من طعام عجل حنيذ، وضعه بين أيديهم، ولم يشاورهم فيما سيقدم لهم من طعام، بل حضره خفية، وهي العادة المتبعة عند الكرماء من الناس، أن يرخص ماله احتراماً لضيفه قال سبحانه وتعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [الذاريات: ٢٦].

ومن السنة في الإسلام التسليم على أهل البيت كنوع من الاستئناس والأمان يقابله استقبال أهل البيت ببشاشة لضيوفهم وتقديم أفضل ما عندهم من فراش وطعام وشراب وسكن.

ولكنه يفاجأ بأمر جعله يحس بالخوف من مجموعة هؤلاء الرجال الضيوف ...يقدم لهم أفضل ما عنده من طعام ولكن لا يرى أيديهم تصل إليه قال سبحانه

وتعـــــــالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات: ٢٧ - ٢٨].

فتدارك الملائكة الأمر، فطمأنوه عليه السلام ونقلوا لـه بشرى مزدوجة، بشروه بغلام، وانه سيكبر ويكون نبياً معلماً للبشر ويكون من زوجه سارة، إذن المبشر به هنا نبي الله إسحاق، عليه السلام، والدليل موقف سارة من هذه البشرى حيث أنها استغربت فضربت بيدها على وجهها من صدمة المفاجأة العنيفة الغريبة كما هي عادة النساء في التعجب عندما يستبعدن أمراً فيحدث بدون توقع.

ووجه الاستغراب أنها عجوز عقيم، وزوجها شيخ كبير فأجابها الملائكة أن الله قـادر، ولا حـد لقدرتـه، فهـذه معجـزة مـن المعجـزات لمخالفتهـا طبيعـة الأشياء ثم أكدوا لها هذا الخبر، بان المخبر هو الله ولا راد لأمره والله حكيم في أفعاله عليم بكل شيء.

قال سبحانه وتعالى في وصف هذا الموقف: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٩ - ٣٠].

ثم ينقلنا المشهد إلى سؤال إبراهيم عليه السلام هذه الكوكبة من كبار الملائكة مستبعداً حضورهم للبشرى فقط فاخبروه بما أرسلوا به من عذاب قوم لوط في الدنيا، قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣١ - ٣٧].

وقد وصفوا لإبراهيم عليه السلام نـوع العذاب الـذي سيلحق بهؤلاء المجرمين الـذين وصـل بهم الحد أن يغيروا الفطرة التـي فطر الله النـاس عليها بشذوذهم الجنسي، وترك ما أمر الله وشرع وهوى إلى ما زين لهم الشيطان، وهو النفس الإمـارة بالسوء فستقلب قراهم، كمـا قلبـوا طبيعـة البشر، وسيمطرون بحجـارة معلمة معدة لهذا النوع من العصاة الذين تعدوا الحدود في إجرامهم وطغيانهم.

وبرحمة من الله وكرامة إخراج لوط وبنتيه سالمين وهم المسلمون المؤمنون والوحيدون في تلك الديار قبل أن يحيط العذاب والدمار الشامل بباقي أهل سدوم. وفي تدميرهم هذا آية وعبرة لمن يتعدى حدود الله فيطغى ويسرف في إجرامه، ويستمر في عصيانه، ولا يستجيب لوعظ واعظ، ولا لنصح فيعذب لسخط الله عليه. ولا يستفيد من هذه الآيات والعبر إلا الذين يخافون الله، مؤمنين بوجوده، يتجنبون غضبه، ويطلبون رحمته وعفوه.

وأما كلمة «آية» في هذه الآية، فقد تكون هي الحجارة المسمومة التي رجموا بها،وقد تكون قلب تلك القرى ودكها. وقد ذكرت كعظة للكفار من قريش الذين يمرون بهذه القرى على طريق. تجارتهم في الصباح والمساء، فيرونها قد دمرت وخربت، وحجارتها من ملح وكبريت، قاحلة أرضها فلا تنبت زرعاً بعد أن كانت جنات وارفة، وحقولا يانعة على الحافة الغربية من البحيرة المنتبة، الخالية من السمك.

قال سبحانه وتعالى، مذكراً قريش: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨].

نؤمن بهذه الأخبار كما وردت في كتاب الله الذي ينطق بالحق، ونحتقر آراء المشككين في معجزات الله نؤمن أن رب العالمين هو المعذب والراحم، كل بأمره ومشيئته وما بيدنا إلا رؤية آثار رحمته أو عذابه. ومن نعم الله على أمة الإسلام الماجدة، استجابتها لدعوة نبيها، وامتثال أمر الله، وإتباع شرعه وما كانت كأقوام سبقت، يؤمن مع النبي، ويستجيب لدعوته الواحد والاثنان.

بل انتشر هذا الدين بفض الله وعونه في المعمورة، ولا تزال تهفو إليه قلوب الصالحين المستنيرين بنوره، المهتدين بهدية، سبحانه وتعالى.

٨- نزول الملائكة على أهل الأرض للتبشير أو التحذير

سبقت هذه الآيات المتعلقة بمشهد من قصة إبراهيم عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحِجر: ٤٩ - ٥٠].

ففي الآيتين السابقتين يظهر الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والرجاء والخوف، والإنس والهيبة، والرحمة والعذاب فهي مقابلة بين نتيجة السير في طريق الشر والفتنة. كما سبقت بمقارنة بين الغاوين، عبدة الشيطان، وبين المتقين عبدة الرحمن.

ثم بين آدم عليه السلام، والذي أخطأ فتاب وبين الشيطان الذي أخطأ فتمرد. يأمر رب العالمين، سبحانه وتعالى، رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس عن زيارة بعض الملائكة في هيئة البشر لإبراهيم عليه السلام، في بيته بعد هجرته لبلاد الشام المباركة حفظها الله، وأعان أهلها المرابطين.

وهذا العلم لم يكن يعلمه لا محمد الأمي، ولا قومه في جزيرتهم، كما تذكر هذه الآيات من قصة إبراهيم، عليه السلام، الخوف من ضيوف لا تأكل طعام مضيفهم، يقابلهم بشرى تحمله هؤلاء الضيوف المكرمين بذرية صالحة، لإبراهيم من زوجه العجوز العاقر سارة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحِجر: ٥١ - ٥٦].

ولا يقنط المؤمن من رحمة ربه، مهما طال الزمن، وتأخر الفرج والرحمة، والقنوط من طبع الضال اليائس من رحمة ربه. وتظهر المقابلة بين الإنجاب في السن الطبيعي والإنجاب لمعجزة في سن اليأس هذا ما جعل

إبراهيم عليه السلام وزوجه يستغربان الإنجاب، ويتعجبان من تلك البشرى.

ثم المقابلة بين غلام عادي وبين غلام سيكون عالماً نبياً، والمقابلة بين نزول ملك يحمل رسالة تبشير وبين مجموعة من الملائكة الأشداء لقلب مدائن بكاملها، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [الحِجر: ٥٧ - ٦٠].

ثم مقابلة بين هلاك قوم لوط جميعاً بأشد أنواع الهلاك لطغيانهم وكفرهم، ونجاة لوط، وأهل بيته، ما عدا زوجه الهالكة.

ومقابلة بين النجاة لفرد وبين النجاة لأهل بيت، لتقواهم وهذا يبين عدالة الرب إلا ما استثنته الآية منهم.

والنتيجة انجاء المؤمنين، وإهلاك الظالمين، قال سبحانه وتعالى في العدل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

٩- سارة تخدم الضيوف مع زوجها عليه السلام

سمة الغضب الإلهي تظهر في سياق هذه السورة، فمن عصيان قوم نوح عليه السلام وغرقهم بالطوفان، مع أهل الأرض ونجاة من في سفينته عليه السلام.

ونوح عليه السلام ينادي ربه مستغيثاً، أن ابني من أهلي تدفعه عاطفة الأبوة، ورحمة الوالد على الوليد.

قال سبحانه وتعالى يخبرنا عن هذا الأمر: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٧].

فلا يغني الأب النبي عن ابنه الكافر شيئاً والآخرة اشد قطيعة وابعد فرقا. وقوم هود، وقد نزل بهم العذاب الغليظ، وما نجا إلا هود عليه السلام، ومن آمن معه.

ونبي الله صالح، عليه السلام وهو ينظر لقومه، وقد عصوا ربهم، فأخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وجاء دور قوم لوط المجرمين، وعذابهم المميز، وما اغنى نبي الله لوط، عليه السلام عن زوجه شيئاً، وذلك عندما انضمت لقومها، العصاة فهلكت مثلهم.

ويمر ملائكة التدمير لقرى قوم لوط على خليل الرحمن، إبراهيم عليه السلام، فتصف لنا الآيات الكريمة استقباله لضيوفه من الملائكة، الذين هم في صورة البشر.

وتعطينا هذه الآيات الكريمة درساً في كرم إبراهيم عليه السلام، قدوة العرب أهل الكرم عبر العصور.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ

﴿مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣].

ومن أدب المضيف، نحو ضيفه بالتسليم، ويؤنسهم بالبشاشة – مهما كانت ظروفه - قال رسول الله محمد ﷺ، "ليلة الضيف حق"رواه البخاري. وقوله ﷺ، أيضاً: (الضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة) رواه البخاري.

- عدم استشارة الضيف في تقديم الطعام له بل يحضر خلسة، وبدون ضجة وبالسرعة الممكنة.
- يقدم المضيف أفضل ما عنده من طعام، ويصنعه بأحسن الطرق – وصف العجل بأنه سمين، وقد شواه على حجارة محماة، وهو أفضل أنواع الطبخ، والطعام هنا هو تقدير واحترام، أكثر منه لشهية الأكل.
- يقربه للضيف بالسرعة الممكنة، مع استعماله ألفاظ المجاملة والاستئناس وبدون منّه.
- وقوف زوجه، سارة معه لخدمة الضيوف هؤلاء قد يكون ذلك لعدم وجود رجال له تساعده لبعده عن قومه.
- هذا وليس هنالك ما يمنع حضور النساء وقت الطعام خاصة حتى في سنة الإسلام، فقد روى في الصحيحين مسلم والبخاري أن دعا أبو أسيد الساعدي رسول الله، محمداً ﷺ، في عرسه فكانت امرأته يومئذ خادمهم وهي العروس، قال سهل: «أتدرون ما سقت رسول الله، ﷺ، نقعت له تمرات من الليل في تور فلما أكل سقته إياه».
- وفي أثناء هذا الهدوء، والتقدير الظاهر، والعجل المشوي الحنيذ، بين يدي ضيوفه شاهد إبراهيم وزوجه أمرا غريباً مخيفاً، حيث لم تمتد أيدي هؤلاء الضيوف المكرمين إلى طعامه، فتدارك هؤلاء الضيوف الأمر فقال قائلهم ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ فلن يصيبكم أهل البيت مكروه، بل ونبشركم بمولود ذكر، يكبر ويعيش ويكون نبياً، وينجب ولداً اسمه

يعقوب.

فهذه ليست بشرى واحدة بل هي حزمة من البشائر توحي بالخير والسرور والإنس لأهل البيت وهذه البشرى جعلتهما يستغربان مما بشرا به أطبيعي أم معجزة؟ ودليله كمعجزة أن سارة هذه في سن اليأس وإبراهيم عليه السلام شيخ كبير. فأجابت الملائكة أن لا قنوط من رحمة الله، ولا عجب من أمره الذي يقول للشيء كن فيكون ثم ينتقل الأمر لمجادلة الملائكة في إنقاذ لوط وأهله فطمأن هؤلاء الملائكة نبي الله إبراهيم عليه السلام، الحليم المنيب (المنيب الذي يتوب ويرجع سريعاً لربه) (والحليم: الذي لا يثور بسرعة) (والأواه: كثير التضرع لربه).

طمأنه الملائكة على لوط وأهله، ما عدا زوجه التي ستكون من الهالكين، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٦].

١٠- إبراهيم عليه السلام يدعو لأهل الحرام خاصة ولذريته عامة

نسير مع سياق هذه الآيات المباركة من سورة نبي الله إبراهيم، عليه السلام، حيث يذكر سبحانه وتعالى فضله على قريش، ويذكرهم بجدهم إبراهيم، عليه السلام مكسر الأصنام واستجابته، سبحانه وتعالى، لدعوة إبراهيم لأهل الحرم، وبناء الكعبة المشرفة، وجعلها مهوى قلوب البشر، تجذبهم سنوياً لزيارتها.

ثم دعاء إبراهيم عليه السلام أيضا لأهل الحرام بالأمن وهو أهم ما يحتاجه الناس، فهو مشترك في نيل السعادة، ونيل الرزق، واستمرار الحياة.

قال سبحانه وتعالى يخبر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، ليخبر الناس بدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٦].

ثم يطلب من الله لنفسه ولأبنائه من يحميهم من الانحراف عن الدين الحق الصحيح، إلى عبادة الأصنام، حيث أضل بها الشيطان كثيراً من الناس.

وبين عليه السلام أن من اتبع الدين الحنيف، واهتدى فهو من أهل دينه، والعاصي المنحرف عن الحق المتمسك بعبادة هذه الأصنام فما له إلاّ رحمة الله وعفوه فهو عليه السلام يفوض أمر العاصي لله ويدعو لهم بالخير والرحمة. وقيل انه دعا هذا الدعاء عندما ترك إسماعيل وأمه بعد ما أفهمها أن الله أمره بهذا السكن لهم فقالت زوجه هاجر: "إذا لا يضيعنا".

وقد بين الدافع لسكن إسماعيل وأمه في جبال فاران من بلاد الحجاز، في واد غير ذي زرع عند المسجد الحرام.

- وذلك قبل الأمر الإلهي بتجديد بنائه وقال سبحانه وتعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ

ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[إبراهيم: ٣٧ - ٣٩].

- فدافع التسكين في بلاد الحجاز هو خدمة هذا البيت محج المؤمنين، وقبلة المستقبل لإقامة الصلاة، وطلب المغفرة، رغم بعد المسافة، وصعوبة المناخ، وقلة النبات وشح المياه. واستعمال حرف الفاء «فاجعل» لها دلالتها، وذلك لسرعة جلب قلوب محبة لهم، يستأنس بها، وتسرع لنجدتهم، والسكن معهم، فتسكن نفوسهم في تلك الغربة.

وكلمة «تهوي» تفيد استمرار الصلة في المستقبل والحاضر ومعناها تحب وتشتاق وتنزع وتحن وقوله "تهوي إليهم» أي للسكن، ولم يقل «تهوي إليه» لكان للمسجد فقط.

دعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس، أي بعض الناس تتعلق وتحب وتهوى زيارة هذا المسجد المبارك ولو قال أفئدة الناس لازدحم البشر في ذلك الموضع المقدس، ولما تحملته أرض الحرم المحدودة.

وذلك عندما علمت بمضاعفة أجر الصلاة فيه أضعافاً كثيرة. قال رسول الله محمد ﷺ «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة» رواه مالك في الموطأ والنسائي وابن ماجه.

ثم دعا لهم بالرزق من الثمار وقد استجاب رب العزة لهذا الدعاء وعبر القرون، فها هي الثمار تجلب من أقطار الأرض لسوقها بدون انقطاع وما على سكانها إلا الشكر وكلمة «لعل» تفيد هنا الترجي فهو يرجو الله لهم الهداية.

فها هي تجارة قريش، كانت تجوب الجزيرة آمنة، رغم جاهليتها، وترويجها لعبادة الأصنام، وذلك استجابة لدعوته عليه السلام.

وفي هذه الآية المكية تعريض بقريش التي رزقت الأمن والنعمة والثراء، ولكنها قابلت ذلك بعبادة المخلوق العاجز بدل الخالق القادر.

ثم تكشف هذه الآية مقدار الوجد على ولده إسماعيل وهو ما يخفيه، ويعلنه للرب القادر الرحيم، المطلع على السرائر والظواهر فالظاهر والمخفي عنده سواء.

ثم حمد الله على نعمة الذرية، وهو مؤمن أن الله سميع دعاءه ويظهر أن هذا الدعاء كان بعد البشرى الثانية وميلاد إسحاق وهو دعاء شكر لله الواهب المنعم.

وقد ربط دعاءه لنفسه ولذريته بالعبادة اليومية وهي الصلاة لاهميتها قال سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠ - ٤١].

وقد ألح عليه السلام، في قبول دعائه، والله يحب العبد اللحوح في هذا الأمر وقد جعل دعاءه عاما لأصوله كما دعا لفروعه مسبقاً، ودعا للمؤمنين وخص حمايتهم يوم الشدة، يوم الحساب، ذلك اليوم العصيب المخيف المرهب.

وفي هذا الدعاء تذكير الناس بأهمية التجهيز لهذا اليوم لا مفر منه، ينجي العمل الصالح صاحبه، ويهلك العمل الطالح صاحبه.

وتستمر الآيات بالتهديد والوعيد والعظات بعد هذا المشهد من قصة إبراهيم، جد قريش ذلك الذي دعا لأهل الحرم بالأمن والرزق وتجنب عبادة الأصنام. وما فيها من عظة لمن ألقى السمع واستنار قلبه فاهتدى.

١١- ثبات إبراهيم عليه السلام على ما عاهد الله عليه من أوامر ونواه

ذكر نعم الله على بني إسرائيل، يذكرهم هنا بنعمته على جدهم إبراهيم، عليه السلام ذلك الجد الذي يعتزون بالانتماء إليه قومياً.

كما أن في سياق الآيات ما يقطع الأمل من رضى اليهود والنصارى عن أمة الإسلام حتى يتبع المسلمون دينهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

في هذه الآيات المباركة تقرير وحدة الدين الصحيح، منذ المصدر الذي يعتز به الجميع، من يهود ونصارى وقريش فتبين انحراف وزيف معتقدهم ونسبهم الديني لإبراهيم، عليه السلام مكسر الأصنام، الرافض لعبادتها، الداعي لوحدانية الله.

الإسلام هو الصحيح وهو النسب الحقيقي وصاحب العهد عند الله فالمشركون الظالمون الفاسقون ليس لهم نسب ديني لإبراهيم عليه السلام بعد ظلمهم وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿... لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] الكفاية في هذا الأمر.

قال سبحانه وتعالى مبيناً فضله ورحمته على إبراهيم حيث جعله أماماً رسولاً، كما حدد الإمامة في ذريته الصالحة فقط، مع استثناء إمامة الظالمين من ذريته ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقد اختلف المفسرون في الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بها وأصحها أوامر ونواه قام بها وعادات أوجدها، وسار عليها وأورثها الأجيال بعده، كتنظيف الجسم واحترام الضيف، والاختتان، ودعوة الناس للحج، وبناء الكعبة وتطهيرها من الارجاس والأدناس.

وقيل ابتلاه بقومه الكفرة الذين رموه في النار واستجابته لأمر الله، بذبح

ابنه، وابتلاه بالهجرة، ثم ابتلاه بتأخير الذرية، أمنيته في الحياة، وحتى وصل سن الشيخوخة. والإمام هو القدوة وعندما بشر بالإمامة دعا أن تبقى الإمامة في ذريته، فأجيب أن العصاة من ذريته لا عهد لهم في الإمامة، ولا نجاة لهم من العذاب.

وقال بعض فقهاء الإسلام بعدم إطاعة ظاهر الفسق والظلم، ولا تصح إمامته. من استرع الذئب فقد ظلم، فكيف به يكف الظلم عن الناس، وهو نفسه ظالم؟

فالسبب الوحيد للربط هو ورثة العقيدة الصافية النقية من الشرك ومن رغب بنفسه وفسق فليس له نسب في عقيدة إبراهيم. فقد وضح رب العالمين سبب إعطاء الإمامة والخلة وشرف رئاسة الدعوة لإبراهيم عليه السلام، كونه اسلم وجهة لله منحرفاً عن جميع أنواع الشرك.

فمن هنا تحولت الإمامة لذرية إسماعيل بعد خيانة ذرية إسحاق وشركهم ونقضهم للعهود، فلم يعد من مجال لاصطفائهم واحتكارهم الإمامة وذلك لانحرافهم عن أسس الدين القويم.

كما سقط فضل كفار قريش لشركهم فمن هنا وصلت الإمامة لمن أسلم من قريش نواة الأمة الإسلامية.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

في هذه الآية الكريمة أمر بجعل البيت الحرام محجاً ومرجعاً يأتيه الناس التائبون ويرجعون ولا يقضون منه وطراً تتعارك أقدام المؤمنين على أبوابه عبر السنين.

يأمر الله سبحانه وتعالى أن نتخذ من مقام إبراهيم وهو مكان أثره عليه السلام مصلى. وقيل إن مقام إبراهيم هو جميع أرض الحرم.

ومعنى "عهدنا" أمرنا والتطهير يكون من الأوثان والقاذورات فالأمر هنا عام وإضافته البيت لنفسه سبحانه وتعالى، نوع من التشريف، وتنويه بإنذار قريش المانعين المسلمين من الحج والعمرة إليه؛ فلا يجوز منع المؤمنين من زيارته والصلاة في أي مسجد في العالم، لأنها جميعها بيوت الله "الطائفين" هم

الغربـاء القـادمون مـن كـل فـج عميـق "العـاكفون" المجـاورون للبيـت فـي مكـة المكرمة ومنها قولها المعتكف "والركع السجود" هم المصلون "والبيت" هو الاسم الغالب للكعبة المشرفة.

"ومقام إبراهيم" هو الحجر الذي تظهر فيه آثار أقدام إبراهيم، عليه السلام.

ومن هنا تسقط دعوة أهل الكتاب باحتكارهم القبلة للمصلى، فقد وضحت الآيات الكريمة أن البيت الحرام هو الأول.

وقد اخبرنا، سبحانه وتعالى عن إبراهيم لأهل مكة، حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فقد دعا لهم بالأمن الدائم، ورغد العيش، وجلب الخيرات لهم، لطبيعة أرضهم القاحلة في واد غير ذي زرع. وعندما استثنى عليه السلام، من كفر منهم من رزق الله ذكره ربه أنه سيرزقهم كالمؤمنين، لا فرق بين البر والفاجر.

وقد حرم عليه السلام في دعائه الكفار من أهل مكة من الرزق قياساً على الإمامة، ولكن الأمر يختلف فالإمامة هي رعاية تتعدى مصلحة الفرد لتضل مصلحة الجماعة فتأثير الإمام الظالم وفساده، يؤثر على مصلحة الغير فخطره على المجتمع عظيم وأما الرزق فهو خاص بكل فرد يطلبه بطريقته وقد تكفل رب العالمين برزق المخلوقات ما دامت على قيد الحياة.

قال سبحانه وتعالى في بناء الكعبة المشرفة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

استجابا عليهما السلام لأمر الله بتحديد بناء الكعبة المشرفة في المكان المحدد لها،وقد تعلمنا منهما أن الأصل في أي عمل هو قبول الرب له، حسب نية العامل لذلك كان دعاؤهما أثناء البناء ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ﴾.

والدليل على تجديد البناء قوله سبحانه وتعالى: «. . عند بيتك المحرم»، حيث أن هذا القول قد قيل عندما ترك إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمه – بأمر الله – في ذلك المكان، ولكن لم يكن إسماعيل قد شب وساعد أباه وهذا يعني قدم

البيت.

وفي مختصر تفسير القرطبي «صفحة ١١، جزء١» ما نصه: بالنسبة لبناء الكعبة المشرفة: "اختلف الناس فيمن بني البيت بالطين والحجارة شيث عليه السلام".

وأما بناء قريش له فمشهور خرج مسلم عن عائشة، رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله، ﷺ، عند الجدر – حجر الكعبة – أمن البيت هو ؟ قال «نعم» قلت: فلم لا يدخلوه في البيت ؟ قال: "إن قومك قصرة بهم النفقة" قلت ما شأن بابه مرتفعاً؟ قال:«فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن ادخل الجدر في البيت، وان الزق بابه في الأرض». وقد أخبرت عائشة عبد الله بن الزبير بهذا.

فلما غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير ووهت الكعبة من حريقهم هدمها ابن الزبير وبناها على ما أخبرته عائشة وجعل لها بابين، أحداهما يدخل منه والأخر يخرج منه، وهكذا في صحيح مسلم.

قال مسلم في حديثه: فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على اس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه وسد الباب الذي فتحه، فنقضه وأعاده إلى بنائه.

وروى أن الرشيد ذكر لمالك بن انس انه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة، وان يرده على بناء ابن الزبير، لما جاء عن النبي ﷺ، وامتثله بن الزبير، فقال له مالك "ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم إلا نقض البيت وبناه، فتذهب هيبته من صدور الناس".

وتنقلنا هذه الآية الكريمة إلى تصور ذلك المكان، وإبراهيم وابنه، إسماعيل، عليهما السلام، يجمعان الحجارة، ويبنيان هذا البيت المبارك في حر مكة، وجفاف هوائها، ينقلان حجارتها وبدون آلات، ويدعوان الله بالقبول، وهو العالم بحالهما ونيتهما، السامع لدعوتهما.

قال سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا

مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨ - ١٢٩].

هما يدعوان لأنفسهما بان يكونا مسلمين لله، ومن ذريتهم أمة مسلمة – الأقربون أولى بالمعروف – وأن يهديهم لمناسك الحج، وفي الحج توبة عامة من الذنوب، لمن شرح الله صدره للإيمان، وتاب توبة نصوحاً.

كما يدعوان الله أن يبعث لذريتهما رسولاً منهم – وقد حدد هذا الدعاء رسولاً واحداً ولم يقل رسلاً وهكذا كان – والهاء في كلمة «منهم» تعني من ذرية إسماعيل عليه السلام، وهم العرب وتنطبق هذه الصفات على رسول الله محمد ﷺ، وقد أرسله ربه بالقرآن الكريم، وهذا ما عنته الآية الكريمة بكلمة «الكتاب» و «الحكمة» هي الفقه في الدين، وهي سنة رسول الله التي هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي. أرسله ربه على فترة من الرسل، لتذكير الناس بالرجوع للدين القويم، وترك عبادة الأصنام، وكل ما يعبد من دون الله و«يزكيهم» أي يطهرهم من الشرك.

قال محمد رسول الله ﷺ عندما سئل: "قال: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام» رواه الحاكم في المستدرك.

وذكر إسماعيل مع أبيه عليهما السلام في هذه الدعوة والشعلة الدائمة للبشرية، مركزها بيت الله الحرام، تدل على إمامة من ذرية إسماعيل فمحمد ﷺ، هو خاتم النبيين وقد تحقق النصر للموحدين، فكلمة "الله اكبر" ترفع من على مآذن زرعت على سطح الأرض المعمورة.

قال سبحانه تعالى، يذكر طاعة إبراهيم عليه السلام، وسرعة دخوله في الإسلام، واستجابته لأمر الله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ١٣٠ - ١٣١].

ومعنى ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي جهل واستخف، ولم يستعمل عقله، فانحرف عن دين التوحيد إلى الشرك فهلك، وكما عملت اليهودية والنصرانية. و«من"

للاستنكار والاستبعاد.

وقوله ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي خضعت وانقدت لأمر الله، هذا هو أعظم أنواع الإخلاص في العبادة، فهو صفي في الدنيا وولي في الآخرة، وذلك لأنه وفى بعهده.

وكانت وصاة إبراهيم وحفيده يعقوب، عليهما السلام، لابنائهما، قبل موتهما، هو التمسك بالإسلام حتى انتهاء الأجل.

والوصية عادة خلاصة تجارب وقناعات وما يتمناه الموصي في حياته من خير، يقدمها لمن يحب، وعلى من يحرص.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٢- ١٣٥].

والخطاب لليهود والنصارى في قوله سبحانه وتعالى، «أم كنتم شهداء..» وتذكيرهم هنا هو نوع من التوبيخ، لعدم أخذهم بهذه الوصية.

ويعقوب عليه السلام، يأخذ عهداً على أبنائه قبل موته، بالسير على نهج الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وقد تعهدوا بذلك. والآيات تخبر اليهود والنصارى بوجوب الدخول في الإسلام، لأنه دين إبراهيم والأنبياء من ذريته.

وتذكيرهم بأن الذي اصطفى لهم هذا الدين هو الله فلا يشرك به، وقد أشركوا وها هي الفرصة قد سنحت لهم للرجوع للخط المستقيم، عن طريق رسول الله محمد ﷺ، فليرجعوا للدين الصحيح.

كما تذكر هذه الآيات أمة التوحيد المسلمة أنها وارثة التوحيد ورجاله، سواء كانوا من نسل إسحاق أم سام أو حام، بلا فرق قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحُجُرات: ١٣].

وهذا ما عليه أمة الإسلام حيث جمعت من شعوب الأرض المختلفة في بوتقة واحده عبر العصور تربطهم جميعاً أخوة الإسلام فالمسلمون هم ورثة الأنبياء جميعهم، ولا فرق بين أحد من رسله.

ثم يذكرهم سبحانه وتعالى، أن لكل امرىء ما كسب وهذا هو رأي أهل السنة: أن العبد يسأل عما قام به باختياره، ولا يسأل عما فرض عليه بدون اختياره. ولا يحاسب إلا على ما أختاره بإرادته وبدون إكراه. فلكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت. فما عمله الأجداد المهتدون الموحدون، لا ينفع الأحفاد إن كانوا ضالين فاسقين مشركين.

١٢- إبراهيم عليه السلام يؤذن بالحج للبيت الحرام قبلة المسلمين بأمر ربه

سياق الآيات الكريمة فيه تكذيب لليهود، وبيان لهم بالحجج الدامغة، أنهم ليسوا على دين إبراهيم الذي يعتزون بالانتساب إليه وذلك لأنه دين إبراهيم هو الإسلام، الملة الحنيفة التي تقاوم، وتتحدى الشرك، ودينه عليه السلام، هو الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله ولأمة التوحيد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٥ - ٩٧].

يأمر رب العالمين أهل الكتاب بإتباع ملة إبراهيم الصافية النقية عن الشرك. وقوله سبحانه وتعالى، ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ . .. ﴾ هو تعريض بكذبهم، وذلك للعداوة المعروفة بين إبراهيم عليه السلام وعبدة الأصنام تلك التي كسرها ليبين عجزها عملياً فينفي من بلده بعد أن عجزت نار قومه عن حرقه.

ثم يثبت وجوب التوجه في الصلاة للبيت الأول الذي بني للناس بمكة المكرمة، وهو مصدر هداية وبركة لجميع الناس.

هو القبلة الحقيقية التي تتعارك أقدام المؤمنين من أقطار العالم حول كعبتها المشرفة، يتحملون المشاق لعظم الأجر، وبركة التوبة فيه.

وسميت"بكة" لقلة مائها، أو للمشقة في الوصول إليها، أو لتعارك أقدام المؤمنين على أبوابها.

أرض الحرام كلها مقام إبراهيم وحتى تلك الحجر الموجودة في الشاهد على المقام هي مجموعة من الآيات، فغوص القدم في صخرة صماء هو نفسه آية، واثر القدم هو آية ووجود هذا الحجر عبر العصور تحت نظر الحجيج هو

آية هذه أماكن النسك المبينة المحددة كألفاظ الصلاة ووقت الصوم، ونصاب الزكاة، لا يجوز تخطيها، أو زيادتها أو نقصانها، ولا الحيد عنها وأما ما يتعلق بالأمان الذي ذكرته الآية فقد اختلف الفقهاء بجواز إقامة الحدود في أرض الحرم الشريف حتى قال ابن عباس رضي الله عنه: "لو وجدت قاتل أبي لم أعرض له" وكانت الجاهلية تسير على هذا الرأي ولما جاء الإسلام زاده تعظيماً وتكريماً.

هذا وأرض الحرم هي مكان للعبادة والتوبة والسكن والهدوء والخلود من هموم وحروب ومشاكل. فهو في حاجة للأمان والاطمئنان.

والحج فرض عين على التراخي وقد أكدت الآية الكريمة هذا الغرض بأغلى أنواع ألفاظ التأكيد وخاصة حرف «على» والسبيل: هو الزاد والراحلة.

وهذه بشرى للمؤمنين بأن الإسلام سيطوف الأرض كلها، وقد غلظ البعض على من باستطاعته الحج، ولم يحج خاصة، وقد قرن هذا الفرض في الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فقد قرنت بالكفر.

وقد روى الترمذي عن علي كرم الله وجهه، قال رسول الله ﷺ من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً وذلك لان الله يقول في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾ .

وقال البعض أن هذا ينطبق على من جحد ركن الحج ووجوبه والله أعلم. وفي كونه ركناً من أركان الإسلام ما يوحي بوجوب الأداء بالسرعة الممكنة، لان علم الأجل بيد الله.

هذا وقد اختلف فقهاء الأمة في من لا يستطيع الحج إلا بدفع رشوة أو مكس، فكان رأي الإمام الشافعي بسقوط هذا الفرض، وخالفه غيره بإجازة دفع مبلغ للظلمة للوصول إلا بالدفع.

اخرج سعيد بن منصور واحمد في كتاب الإيمان، وأبو يعلى والبهيقي عن أبي إمامة قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً".

ويحذر رب العالمين المؤمنين من خطورة إطاعة فريق من أهل الكتاب، لان نفوسهم تنطوي على الحسد والغش والبغض لأمة الإسلام، امة التوحيد فلا أمان لنصحهم أو مشورتهم فهم ضالون مضلون.

وهذا النصح الموجود للمؤمنين من الله المطلع على السرائر، الكاشف كيد هؤلاء المجرمين وحقدهم الدفين الذي لا تغيره الأزمان ولا الأماكن ولا تعاقب الأجيال.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

قال سبحانه وتعالى، راداً من يحسد المسلمين خير الرسالة: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[النساء: ٥٤-٥٥].

فقد انعم الله سبحانه وتعالى على آل إبراهيم بالإنجيل والتوراة والزبور وجعل منهم ملوكاً كداود وسليمان ويوسف عليهم السلام، فلماذا لم يحسدهم الناس على ذلك؟

ثم ذكرهم بمقاومة بعضهم لدين التوحيد وشركهم وبين بلغة التهديد والوعيد أن مصيرهم إلى النار.

١٣- إبراهيم عليه السلام كان مسلماً

بيان فضل جد الأنبياء إبراهيم عليه السلام وآله من المؤمنين الصالحين الأجلاء وان الله قد اصطفاهم كما اصطفى أدم ونوحاً فهم ورثة دين التوحيد: هم الأنبياء والأئمة والدعاة الصالحين.

ثم دعوة أهله لتوحيد الله وترك الشرك وعدم اتخاذ البشر أربابا من دون الله. ويحضرني في هذا الأمر قول عدي بن حاتم، رضي الله عنه، لرسول الله محمد ﷺ: "ما كنا نعبدهم يا رسول الله، قال أليس كانوا يحلون لكم، ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال نعم قال هو ذاك".

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

يأمر رب العالمين رسوله محمد ﷺ إن يقول للمشركين: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

فيقول رسول الله محمد ﷺ، وان الله قد هداه إلى ما هدى به إبراهيم عليه السلام ملة مستقيمة حنيفة وما كان إبراهيم عليه السلام مشركاً، بل هو محطم الأصنام بفأسه. وذكر إبراهيم عليه السلام هنا أيضاً لتنبيه قريش لمن ينتسبوا إليه، ويعتزون به، الإمام النبي الرسول المنحرف عن عبادة الأصنام إلى الدين القويم. فالرابطة مع الرسول إبراهيم الخليل عليه السلام هي رابطة العقيدة التي تجمع القوميات واللغات والأوطان والألوان.

وهي اقرب الطرق للوحدة والإخوة دين واحد، ودولة واحدة واتجاه واحد والمقياس الموحد، هذا هو الإسلام دين العزة والكرامة والمجد: الذي جمع من أبناء آدم من بقاع العالم امة واحدة في دولة واحدة، صهرها في بوتقة واحدة، فأثمرت إخوة الإسلام الرابطة الدائمة في الدنيا والآخرة.

قال سبحانه وتعالى يرد على قول اليهود والنصارى أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٦].

وهكذا قد كذبهم رب العالمين العالم الحق في ادعائهم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً واعتبرهم لا يعقلون استنكاراً لحجتهم وخطأ قولهم هذا لوضوح الكذب عندهم، وذلك لان الفرع يتبع الأصل، وليس الأصل يتبع الفرع وهذا الأمر واضح لكل ذي عقل.

وقيل من أسباب نزول هذه الآيات الكريمة هو قدوم وفد نجران النصراني إلى رسول الله ﷺ في عاصمته المدينة المنورة ومجادلتهم يهود المدينة في ذلك الوقت وقولهم أن إبراهيم كان نصرانياً، ورد اليهود عليهم انه كان يهودياً.

فكيف لإبراهيم أن ينسب لدين جاء من بعده بقرون؟ وهذه الآيات المباركة هي كغيرها من هذه السورة، تعلم أو ترشد المسلمين كيف يردون على أهل الكتاب، وتكذيبهم وفضح باطلهم، والتشهير بهم، ثم هي تبصير لأمة الإسلام لإزالة لفتن والشكوك التي بذر أهل الكتاب بذورها فساداً وكيداً وتضليلا بين حديثي الدخول في الدين الإسلامي خاصة وان العرب كانت تظن في ذلك الوقت أن أهل الكتاب على شيء من الدين بصفتهم من ذرية الأنبياء وأصحاب كتب وعلم.

وأما الذي لهم فيه علم فهو أن محمد رسول من الله مكتوب في كتبهم السماوية، وما سيأتي به من أوامر ونواه ونور يهدي به الضالين والحيارى.

تلك التعاليم التي حادوا عنها، واتبعوا الهوى، ورأيّ الملوك الضالين وكل شيطان مارد. وأما دعواهم الكاذبة في إبراهيم النبي الرسول فليس لهم به علم اليقين، وما تضمنته صحفه. والجدال جائز فقط لمن عنده علم ويقين وفقه في الدين وفي المسألة التي يجادل فيها خاصة. "وها انتم" للتعجب من حماقتهم وجهلهم، فهم لم يسيروا طريق المنطق السليم في جدلهم هذا.

قال سبحانه وتعالى يرد على اليهود والنصارى: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا

نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧ - ٦٨].

وقد امضي إبراهيم حياته في محاربة الشرك، وبناء المساجد لتكون حصوناً، ومنارات لنشر الدين فلم يكن يوماً مشركاً، كاليهود والنصارى الذين يرجعون لأحبارهم ورهبانهم وعقول البشر القاصرة، تاركين تعاليم الكتب السماوية، وذلك في التحليل والتحريم. وكان عليه السلام مسلماً متذللاً، يحج ويضحي، ويختتن ويغتسل ويوحد الله. وفي هذه الآية الكريمة بشرى للمسلمين بأن الله وليهم، وإنهم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام وهذه مكرمة لا يعلوها مكرمة، وفضل لا يساويه فضل، فيها عز الدنيا والآخرة.

هذا جواب رب العالمين على قول اليهود لرسول الله محمد ﷺ: «والله يا محمد لقد علمت أنا أولى الناس بدين إبراهيم، منك ومن غيرك، فإنه كان يهودياً وما بك إلا الحسد».

عن ابن مسعود أن النبي، ﷺ قال: «إن لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي – ثم قرأ – إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي».

وقد حصرت النبوة في ذرية إبراهيم كما حصرت في ذرية نوح عليهما السلام، لذلك لا مجال للتنبؤ عند غيرهما.

قال محمد بن إسحاق: أن ابن عباس قال: عن سبب نزول هذه الآية الكريمة: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله، ﷺ، فتنازعوا عنده فقالت الأحبار ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ...﴾ [آل عمران: ٦٥].

ونستنتج من هذه الآية أن اليهود والنصارى هم مشركون، وأن التوحيد والكفر لا يلتقيان. كما أن هذا الأمر ينطبق على مشركي العرب من قريش أيضاً رغم انتسابهم إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

١٤- إبراهيم عليه السلام يطلب من ربه أن يرى كيفية إحياء الموتى فيستجاب له

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الأمر يتعلق بسر الحياة بدءاً والموت والنشأة الثانية، ولأن هذا الأمر من المغيبات، فقد وسوس الشيطان لعرب الجاهلية خاصة والكفار عامة، استحالة هذا الأمر.

وقد سبقت هذه الآية مجادلة إبراهيم عليه السلام، مع ملك بلاده وانتصار إبراهيم على ذلك الملك المتأله في تلك المجادلة، ثم قصة العزير عليه السلام، وبعثه بعد مائة عام من مرقده، فمشاهدته لحماره وقد تجمعت عظامه، ثم كسيت لحماً، فانتصب قائماً، والعزير عليه السلام ينظر ويتعظ.

وطلب إبراهيم، عليه السلام من ربه أن يرى، كما يسمع، كيف يحيي الله الموتى وما في ذلك من يقين واطمئنان، وسؤله لربه: هو عن كيفية الإحياء لا عن الشك في الإحياء لأنه مؤمن بأن الله يحيي بقدرته المطلقة ولكنه يريد أن يرى كيفية الأحياء فقط ليشاهد ما تصوره في ذلك.

وقول الله له "أو لم تؤمن"وهو يعلم لإيمان عبده إبراهيم وقوته، يكون توجيه الجواب والكلام لجميع السامعين المتعظين من خلق الله وما إبراهيم عليه السلام إلا وسيلة وسبب لنزول هذا التيسير والوضوح في هذه المسألة الشائكة، كما مر مع العزير عليه السلام، ومع باقي قصص الأنبياء عليهم السلام فالفائدة والعظة هي للسامعين والمفكرين عبر العصور وهذا هو الملاحظ من ورود قصص القرآن الكريم وخاصة ما يتعلق بمواقف الأنبياء والصالحين والجبابرة المتعسفين، والطغاة الظالمين، وأهل الفساد في هذه الأرض.

كل هذا لنقتدي بالصالحين، ونتجنب سلوك المفسدين من أهل الشك والريب، حزب الشيطان الرجيم.

وقد يكون سؤال إبراهيم مبنياً على قول ملك بلاده: حين قال: أنا أحيي وأميت، وترك إبراهيم للإجابة لخروجها عن موضوع الموت والحياة المراد. ثم نقل السؤال إلى موضوع أعجز ذلك الملك المتأله، فبهت الذي كفر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

قيل أن الوليد بن المغيرة من الملأ من قريش: فرك عظماً بالياً بين إصبعيه بحضرة رسول الله محمد ﷺ وخاطب رسول الله قائلاً: هل يرجع ربك صاحب هذا العظم البالي لحالته الأولى يوم القيامة؟ فكان جواب رسول الله، محمد ﷺ، أن نعم، ويدخلك النار وقد قتل هذا الكافر يوم بدر كافراً.

وقد بدء سؤال إبراهيم، عليه السلام، بكلمة ﴿كَيْفَ﴾ وهذا دليل على قوة إيمان ويقين إبراهيم، عليه السلام، فهو يريد الكيفية فقط. وكلمة ﴿رَبِّ﴾ فيها من الاستعطاف والاطمئنان الإيماني والحب لله ما فيها.

والألف في قوله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ﴾ ليست استفهامية بل هي ألف إيجاب وتقرير كما قال الشاعر المشهور جرير: ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح.

ومعنى "وصرهن" هو خلط أجسامها مع بعضها البعض بحيث لا يميز شيئاً من شيء ثم وضع هذا المخلوط على رؤوس أربعة جبال، ثم دعا عليه السلام هذه الطيور فأتت مسرعة إليه متميزة عن بعضها البعض بحيث لا يميز شيئاً من شيء.

هذا وفي أنفسنا آيات للمتبصرين، فالطعام الذي يرد معدنا، ثم يتحلل بدون إرادتنا إلى ذرات ينقله الدم ليغذي خلايا أجسامنا المختلفة ثم يخرج هذا الدم ما تلف من خلايا أجسامنا المختلفة فتستمر الحياة كلها آيات واضحة على قدرة الخالق، لمن عنده بصيرة واستنارة.

وهذا رسول الله، محمد ﷺ، في أعظم أيام الشدة – قبل الهجرة – أسري

به، ثم عرج به إلى السماء حيث شاهد عظمة ملكوت السماوات، وما غاب عن أنظارنا منها.

فهذه الآية وأمثالها من القصص هي أجوبة لما تحدث به النفس الإنسانية من استفسارات عن الكون والحياة والإنسان والعلاقات، ثم العلاقة الخاصة بين العابد والمعبود، وما يطلبه المعبود من ذلك العابد الضعيف. ثم رؤية الجنة بنعيمها، والنار وسعيرها، فيكون الإيمان أقوى، والخشية أشد وأهيب.

أمنية أهل الكتاب هي النبوة والخير لهم وخيرهم من دون الناس، ثم تشريفهم على ذلك، لنسبهم لإبراهيم عليه السلام، وبدون عمل صالح فكان الرد المفحم من الله سبحانه وتعالى، أن الدين المعترف به عند الله: هو دين الإسلام، وهو الدين الحسن.

قال سبحانه وتعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

اتخذ الله إبراهيم خليلاً لطاعته ومحبته وإخلاصه وصبره على البلاء وتطبيقه لأمر الله ونهيه.

هذا وقد أبرزت هذه الآية المباركة دين الإسلام فهو المهيمن لإتباعه ملة إبراهيم في التوحيد.

المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي.

٣. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفي سنة ٧٧٤هـ - دار إحياء الكتب العربية.

٤. تفسير البيضاوي – أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي – دار الجيل سنة ١٣٢٩هـ.

٥. ثلاثون مؤمنة وصحابية كن مشاعل للنور – للمؤلف – دار البيارق.

٦. روح المعني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثماني – لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي – الطبع الرابعة – ١٤٠٥ هـ - إدارة الطباعة المنيرية – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.

٧. شرائح حذرنا الله منها – للمؤلف – دار البيارق.

٨. صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني – دار القرآن الكريم – بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٩. فتح القدير – محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٠هـ - دار الفكر.

١٠. في ظلال القرآن – للسيد قطب – دار الشروق – الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ.

١١. محاسن التأويل (تفسير القاسمي) محمد جمال الدين القاسمي – دار الفكر – بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٨هـ.

١٢. مختصر تفسير الطبري – اختصار وتحقيق – الشيخ محمد علي الصابوني – د. صالح أحمد الرضا – عالم الكتب -الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٣. مختصر تفسير بن كثير – محمد علي الصابوني – دار القلم – بيروت – لبنات – مكتبة جده – الطبعة الخامسة.

١٤. مختصر تفسير القرطبي – لأبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي – اختصار ودراسة وتعليق – الشيح محمد كريم راجح – الناشر دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثانية.

١٥. من مواقف القدوة في المحن – للمؤلف – الطبعة الثانية – دار البيارق.

١٦. الصحاح الست وبعض كتب الحديث الموثقة الأخرى.

الفهــرس

Contents